نسيج التِّبْر

اسم الكتاب: نسيج التبر
التأليف: يارا سعيد
نوع العمل: رواية
مراجعة وإخراج فني: عمرو سالم سواح
رقم الإيداع: 2020/ 21888
الترقيم الدولي: 978-977-835-227-6
الناشر: دار زحمة كتاب للنشر والتوزيع
١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر Facebook
za7ma-kotab@hotmail.com Email
002 01205100596 Tel
002 01100662595

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار زحمة كتاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل
من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

نسيج التِّبْر

رواية

يارا سعيد

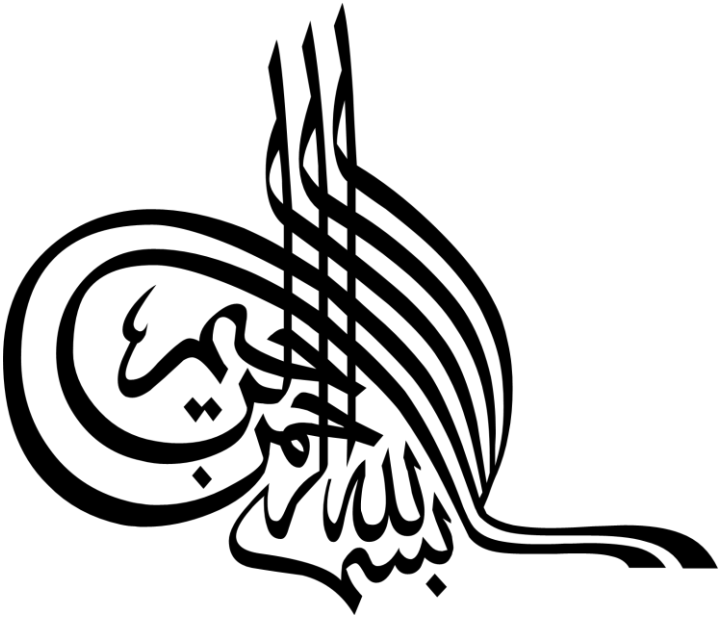
بسم الله الرحمن الرحيم

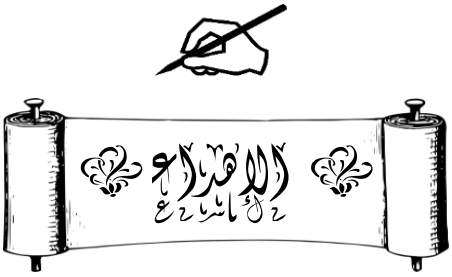

إلى كلّ مَن تركَ بصمته على شخصيتي سواء كانت حسنة أم سيئة، أشكركم على جعلي أكثر نضوجًا.

إهداء خاص

إلى نفسي:

تحملتِ الضغوطات والأوقات السيئة والانعزال عن العالم لتُخرجي أفضل ما لديكِ، أنتِ أفضل شيء لدي في تلك الدنيا.. أشكُرِك.

إلى عائلتي:

أشكركم بحجم الكون على حبكم لي ومساندتي وإيمانكم بي.. أشكركم على تحمل حديثي طوال الوقت عن الكتابة والرواية التي كانت تشغل كل ركنٍ في ذهني.. أحبكم دائمًا وأَبَدًا.

إلى أصدقائي:

تعمدتُ عدم ذكر أسماء إيمانًا بِأن كل من أُحِبه سيشعر بِأن تلك الكلمات موجهة إليه.. لكن أريد القول إنكم مصدر صلابتي وابتهاجي، أنا أستمد ثقتي وحبي لنفسي منكم.. أشكركم على كل كلمة تشجيع، على كل وقتٍ صعبٍ تحملتموه معي، على كل تقلبات المزاج ولحظات انفعالي وغضبي والكثير.. أنتم الرزق والجمال والنعمة الرائعة.

إلى كُلٍّ من:

- الكاتب/ عمرو سامي
- نوران لؤي
- ملك محمود
- منة الله وائل
- جنى أسامة
- مريم عمرو
- كريم عمرو
- أحمد همام

لولاكم ما كانت لتكتمل تلك الرواية كما أردت.

إلى مُلهمي:

الكاتب العبقري الراحل أحمد خالد توفيق.. كم كنت أتمنى وجودك ورؤيتك لأخبرك أن إحدى محباتك تحاول إكمال مسيرتك.. كنتَ أنت صوت إلهامي وبداية كلماتي.

أخيرًا.. إلى القارئ:

تعمدت ذكرك يا عزيزي في النهاية لأن الخاتمة تكون دائمًا مسكًا.. شكرًا لمشاركتك تجربتي الأولى، سأحاول قدر الإمكان إرسال رسالتي وغايتي البسيطة لك من وراء تلك الكلمات.. أتمنى لقاءك في عملٍ آخرَ يجعلك تتعلق بكلماتي.. لك جزيل الشكر.

*****

المقدمة..

"تِبْر"

مصر..

تحديدًا في حي الدقي قبل غروب الشمس.

المكان مكتظٌ بالبشر عند قرب المبنى الذي يسكن فيه، كأن الحكومة قررت رفع الرواتب لكل من يقف في تلك البقعة فقط، أو ربما قرروا أن يثوروا على الحكومة في تلك البقعة نفسها، يمكن أن يكون هو من ضمن هؤلاء البشر المكتظين أو منعزلًا منذ ذلك اليوم في شقته لا يهمه ما يحدث بالخارج.. قطعتُ أفواج البشر الذين لم يتركوا مساحةً للتنفس حتى رأيته.

عاري الصدر، على ذراعيه وصدره آثار جروح غائرة، وعلى صدره آثار لحروق دائرية صغيرة أعتقد أنها سجائر، وشعره صُبغ بحمرة دمائه، اجتمعتْ في عيني الدموع ونظرتُ إلى مَن حوله بخوف، مشهد مخيف وما يخيفك أكثر كثرة الناس حوله كأنهم النحل يتهافتون على زجاجٍ من العسل، لم أكن أعرف أن الناس يحبون رؤية الدماء أو شم رائحته.

أسمع من يقول: ربما كان له نشاطٌ سياسيٌّ لم يتحمل تعذيبهم فعندما عاد قرر الانتحار. وآخر يقول: أنا أسكن في الطابق العلوي وكنت أسمع صراخه بعد منتصف الليل أعتقد أنه كان يمارس سحرًا وهذه آثار جن -والعياذ بالله-.

لكن أنا الوحيدة من كنت أعرف لماذا انتحر، وسبب تلك الجروح والحروق، لم يكتفِ "هلال" بجلد روحه المعذبة بل قرر الانتقام من جسده.. من كل خلية وافقتْ على لمسي.. من كل خلية احتكتْ بإحدى خلاياي، وربما انتهى به المطاف بأن ينتحر ليريح نفسه من كل ذلك التعذيب، كان إلقاء نفسه من شقته موتة رحيمة به على كل حال.

- أكنتِ تعرفينه؟

نظرتُ إلى صاحب الصوت الخشن وإلى جثة هلال، هززت رأسي نافية ثم انصرفت من وسط الزحام.

مات هلال لأنه رأى أكثر من اللازم.. لأنه عاش أكثر من اللازم.. لأنه أخطأ أكثر من اللازم.

مات هلال وأنا هنا أشاهد جثمانه المصبوغ بالدماء وللعجب أنني من كنت أريه كل ذلك.

لعبتُ في خصلات شعري البرتقالية وأنا أهمس بحزن:

- كم كنت هشًّا يا هلال!

***

_١_

"هلال"

لو استطاع الإنسانُ تطهيرَ عقله من المعاصي ما كان أذنب، لو استطاع إسكات أوجاع روحه ما كان أذى نفسه، لو استطاع اقتلاع ذكرياته لكان مضى سعيدًا غير عابئ بماضٍ لا يترك سوى الندوب.

رفعتُ رأسي ناظرًا إلى سقف الغرفة وأنا أدخن، سقف أبيض يفكرني بخواء روحي، وغرفة مملوءة بالنيكوتين مثل رئتيّ، ألحان جميلة تهب مثل الهواء إلى أذني أكاد أراها وهي تلعب بأصابعها على أوتار التشيلو، كنت أعلم أنها لن تنام وستفضل التدريب على النوم لأجل حفلتها كما تفعل دائمًا، وأنا أيضًا اعتدت على استيقاظي في تلك الليالي لأسمعها، هي تظن عندما تعزف في الغرفة المجاورة أنني سأستطيع النوم ومؤخرًا أنا لا أستطيع النوم في وجود ألحانها أو غيابها، أعتقد أنني أفضلُ أَرَقَ الاستماع إلى ألحانها على أرق الاستماع لصوت عقلي المزعج.

توقفتْ عن العزف وسمعتها قادمة إليّ ففتحت باب الغرفة، نظرتُ إليها وأنا أطفأ سيجارتي فهي لا تحب التدخين أو رائحته.

قالت معتذرة:

- ما كانش قصدي أصحيك.

قلت بنصف ابتسامة:

- أنا لسّا صاحي، عندي محاضرة كمان ساعتين يعني ألحق أخلص حاجات قبل ما أنزل.

اقتربتْ من السرير وهي تقول:

- وأنا هنام لحد ما ترجع علشان نروح سوا المسرح.

تحركتُ من مكاني لأحملها وأضعها على السرير ووضعتُ كرسيها المتحرك في مكانه بجانبها.

- ما تتأخرش عن الساعة خمسة علشان الحق أعمل بروفة مع الفرقة.

هززت رأسي موافقًا، أغمضتْ عينيها وهي تحتضن الغطاء وخرجت أنا خارج الغرفة.

لو فتشت في قلبي ستجدني أحمل لها كل الحب، لكن الشعور بالذنب تجاهها أقوى مني، أقوى من أن أراها كحبيبة فأصبحت هي إلهي الذي أرغب في أن يسامحني ويغفر لي خطاياي، هي الإله في جسد امرأة، هي التي أتضرع إليها راجيًا عفوها عني ونسيان ما فعلتُه بها، هي التي أفديها بروحي فقط لأنها فدوى.

***

وظيفة التدريس من وجهة نظري أصعب الوظائف فأنت القدوة والأب الروحي للطلاب النابغين، أنت الرجل المثالي وفارس الأحلام الوردية للفتيات اللائي خرجن توًّا من مرحلة المراهقة -خاصة إن كنت رجلًا أربعينيًّا مثلي-، وأنت السياف -أقصد الأستاذ الصارم- الذي يبغضه ويخاف منه الطلاب الكسالى الذين أتوا إلى الجامعة للتدخين ومراقبة الفتيات الحسناوات، وحضورهم المحاضرات فقط من أجل بعض درجات الحضور.

لكن على الجانب الآخر لا أتخيل نفسي إلا أستاذًا جامعيًّا يدرس علم النفس بكلية الآداب جامعة القاهرة، ذلك هو الحلم الذي سعيتُ له منذ دخلت بوابة تلك الكلية وأنا شاب وها أنا ذا أقف مكان أساتذتي لأعلّم جيلًا سيأتي وقت عليه ويقف مكاني.

فتحتُ باب القاعة ليبدأ كل الطلاب بالاعتدال، وضعتُ حقيبتي وبحثتُ عن نظارتي وسط ملاحظتي للطلاب.

طلاب العلم يجلسون في بداية الصفوف بظهر قائم على زاوية ٩٠ درجة وعيون بحدقات واسعة توحي بالتركيز والاحترام، من ورائهم الفتيات المراهقات - كم أبغضهن - يظهر على شفاهن شبح ابتسامة نظرات متنقلة بيني وبين صديقاتهن، يُرحن ظهورهن على المقاعد للاستعداد لمشاهدة أستاذهن الذي تحول فجأة إلى فارس أحلامهن وهو يلبسها خاتم الزواج.. أقصد يشرح المحاضرة.

في أواخر الصفوف كارهو السياف، بعضهم أعصابه انسيابية وحركاته كسولة يبدو أنهم بدأوا التململ مني من قبل أن أبدأ

والبعض الآخر أكاد أرى عروقه المشدودة البارزة بذراعهم أرجح أنهم يتخيلونني وأنا مقطوع الرأس بسيفي الوهمي، لو علموا كم أستمتع بتلك الفقرة يوميًّا وأنا أحلل لغة الجسد ما كانوا وضعوا أعينهم بعيني من فرط الخجل.

ارتديتُ نظارتي ثم رفعتُ رأسي وقلت: "موضوع النهار ده مش هيكون محاضرة؛ هيكون مناظرة عن سيكولوجية الشر بين النظرية والتطبيق.. كلنا طبعًا عارفين إن الشر تجسد في صورة إبليس اللي عصى أمر ربه ورفض السجود لآدم ولما ربنا عاقب إبليس على عدم تنفيذه الأوامر تملك الغضب من إبليس وقرر الانتقام من آدم وأي حد يجي من سلالته وكانت أول خطيئة عملها آدم أنه أكل الثمرة من الشجرة المحرمة، ودا سبب نزول آدم إلى الأرض.. السؤال بقى هل آدم بكل نعم ربنا عليه كان عنده استعداد يخالف أوامر ربه زي ما عمل إبليس، ووجود إبليس كان مجرد وسيلة تنفيذ الخطيئة ولا الشيطان هو جانب الشر في كل نفس إنسانية، والإنسان بطبيعته ذو نفس نقية خالية من الشر؟

***

- Scarlet or wine - درجتان من الأحمر الغامق -

نظرت إليها وأنا أنسق بدلتي وهي تحمل إصبعين من ال "lip stick" كما تسميهما وهما في النهاية مجرد أحمر شفاه!

عقدت حاجبي وأنا أتساءل باستحياء: إيه الفرق؟

- ال scarlet أفتح من ال wine، معروفة.

- آه عندك حق أنا آسف!

أفقت من شرودي وأنا أسترجع فدوى القديمة من آخر حفلة لها قبل سنتين، ونظرت إلى فدوى الجديدة وهي تنسق حجابها على وجهها الصغير المستدير ترتدي فستانًا من اللون الفيروزي الذي يبرز جمال بشرتها الخمرية على جسدٍ نحيفٍ وقصيرٍ بعض الشيء، وقفت وراءها وسحبت "أحمر شفاه" من أمامها:

- ده هيليق عليكِ أكتر.

ابتسمتْ ابتسامة صغيرة وهي تضعه على شفتيها الرفيعتين، منذ أن دخلت فدوى حياتي لم تدخل بمفردها بل دخلت بدرجات ألوان لم أكن أعلم بها، أسماء مستحضرات تجميل اعتقدت في البداية أنها أسماء أمراض نفسية جديدة، حكايات عن صديقتها التي خانها زوجها خمس مرات، وعادت مراهقة تهتم بتلك الأشياء الصغيرة وجعلتني أدخل عالمها، لم يكن من السهل عليّ دخول ذلك العالم الأنثوي من أجل امرأة لكنها ليست أي امرأة إنها فدوى. تعلمتُ تفاصيلَ كثيرة في ذلك العالم لأجعلها سعيدة.

ربما أصبحت حياتنا مؤخرًا باهتة، أصبحتْ تنعت الألوان بأسمائها المعتادة، أصبحت لا تهتم بتفاصيل مراهقتها النقية، لم تتمكن محاولاتي أو محاولاتها من تغيير أي شيء لكن يكفي ما نحمله لبعضنا من مودة ورحمة.. أليس ذلك كافيا؟

- شكلي كويس؟

- شكلك جميل.

ابتسمتْ وهي تشدني من ربطة عنقي لأنخفض فتربطها بصورة جيدة ثم طبعتْ على وجهتي قبلة صغيرة ونظرت إلى نفسها في المرآة لآخر مرة.

***

بدأت الحفلة بين فقرات الاستعراض والغناء الجماعي وتبقى فقرتان وينتهي الحفل، فدوى ستظهر في الفقرة الأخيرة.

بدأت أشعر بالملل والنعاس حتى أفقت على صوت الموسيقى نظرت إلى المسرح فوجدت راقصات البالية يدخلن حتى ظهرت نجمة العرض في رداء أبيض، رأيتها فشردت، تأملت شكلها، تفاصيلها من شعرها إلى القدمين.. تأملت شعرها البرتقالي، بشرتها البيضاء الكالحة، جسدها الطويل الممشوق، تمنيت لو أستطيع الاقتراب منها أكثر لأتأمل ملامحها. لم أستطع إنزال عيني من عليها.

شعرت كأنّ العامين مرا عشرين عامًا وأن من أمامي هي إيلاف.. قطعة الجنة.

***

_٢_

"تِبْر"

أنهيت عرضي وتوجهت إلى الكواليس لأبدل ثيابي، اخترت أغنية بشكل عشوائي من على هاتفي لتسليتي وأنا أبدل ثيابي:

''Where have all the good guys gone? And to the romance when I was fourteen years old And to my heroes that were dressed up in gold Only hoping one day I could be so bold Where have all the good guys gone?''

همست لنفسي قائلة: to the heaven لأنه ليس هناك طيبون الآن.

تنهدت ووقفت أمام المرآة وأنا أخرج منديلًا مبللًا لأمسح مساحيق التجميل من على وجهي لولا احتياجي لوضعه في العروض ما كنت وضعته أبدًا؛ أعتقد أنه يخفي جمالي، لا يظهره، يخفي النمش المنثور على وجنتي، العيون العسلية الواسعة، الشفاه المكتنزة..

أعلم أني جميلة دون ثناء الناس أو به، أنا واثقة من جمالي لذا دائمًا أدقق بملامح وجهي؛ حتى لا أنساها مع مرور الزمن.

انتهيتُ من تبديل ملابسي وقبل خروجي فككت شعري البرتقالي الطويل ثم خرجتُ إلى الكواليس لأرى العرض الأخير.

نهاية العرض كان سولو على يد عازفة تشيلو كانت متمكنة من أدائها بأصابع انسيابية فوق التشيلو، انتهتْ من عزفها ودوى التصفيق والتحية للفرقة وبعدها تحركتْ العازفة بكرسيها إلى الكواليس.

قابلتها بابتسامة بسيطة قائلة:

- عزفك حلو قوي.

بادلتني الابتسامة:

- شكرًا، أنا شوفتك على فكرة وأنتِ بترقصي، أنتِ موهوبة جدًّا.

وقبل أن أرد قطع كلامي مجيء رجل طويل القامة وهو يقبل رأس العازفة وأثنى على أدائها وهو يناديها بفدوى.

- فدوى اسم جميل.

التفت الرجل إليَّ وتحولت ملامحه من ابتسامة واسعة إلى صمتٍ ووجوم.

أحسست كأنه يتأمل وجهي فتفحصته بنظرة سريعة، كان رجلًا طويل القامة، ذا جسد رياضي بعض الشيء، له عينان خضراوان، وشعر أسود ولحية يتخللها بعض الشعيرات البيضاء.

كان عليّ إنهاء الصمت فرفعت صوتي كتنبيه:

- تِبْر؟

التفتُّ إلى فدوى وأفاق هو من شروده فأكملت قائلة:

- اسمي تِبْر عابد.

تنحنح الرجل ونطق أخيرًا وقال بصوت خفيض:

- حد من عيلتك كان متأثر ب "إيليا أبو ماضي".

- ماما كانت بتحبه جدًّا خصوصًا ديوان تِبْر وتراب فسمتني تِبْر يعني الدهب الخالص.

- اسم نادر ومميز.. دا جوزي دكتور هلال رفعت أستاذ دكتور في كلية الآداب علم نفس.

مددت يدي بابتسامة:

- سمعتُ عنك يا أستاذ هلال، حضرتك صيتك واسع في الجامعات وكتبك مشهورة.. بابا -الله يرحمه- كان معالج نفسيّ وأنا حبيت علم النفس منه ودرسته في جامعة عين شمس.

صافحني مجاملًا:

- اتشرفت بكِ.

- الشرف ليا.. على كدا يا دكتور هلال إيه آخر أعمالك أو محاضراتك؟

نظرتْ إليه فدوى بضجر فتلعثم هلال:

- معتقدش دا وقته؛ يعني إحنا أجواء حفلة.

- لكن أي واحدة مكاني مهتمة بعلم النفس أكيد مش هتفوت وقفتها مع دكتور زيك من غير ما تستفيد منه.. أنا حابة أعرف مثلا إيه آخر محاضراتك في الجامعة.

- هي ماكانتش محاضرة قوي؛ هي مناظرة عن سيكولوجية الشر بين النظرية والتطبيق، سألت الطلبة فيها سؤال بسيط: هل النفس الإنسانية مؤهلة للشر ولا الشيطان هو مصدر الشر؟

- وحضرتك رأيك إيه؟

- أنا شايف إن الشيطان هو الشر، آدم ماكانش هينزل من الجنة لولا وسوسة الشيطان.

- بس أنا مش متفقة معاك.

لاحظتُ فدوى وهي تنغز يد هلال بأصابعها خفية فنظر إليّ هلال محاولًا إنهاء الحوار:

- أعتقد الموضوع دا محتاج قعدة مش هاعطلك أكتر من كده.

- لا تعطيل ولا حاجة أنا مبسوطة إني اتعرفت عليكم.

ابتسمتْ فدوى مجاملة وصافحتني وابتسم هلال بدوره:

- أنا أكتر.. أكيد هنتقابل في وقت ونتناقش.

نظرتُ إليه متفحصة ملامحه بنظرة سريعة:

- أكيد يا هلال هنتقابل أكيد.

تعجب مني ثم نظر إلى فدوى وتحركا.

بحثتُ عن الحساب الخاص بهلال على مواقع التواصل الاجتماعي حتى وصلت لحسابه على "الفيس بوك" وبدأت أتفحص المنشورات، والمناسبات الخاصة، والصور، دون مبرر واضح.

رجل وسيم وزوجة جميلة أثر الزمن عليهما وفتاة.. فتاة لم تكمل العقد الأول من عمرها، تأملت ملامحها بصدمة..

تبدو..

تبدو تمامًا مثلي!

الشعر البرتقالي، النمش المنثور على الوجنتين، العينان العسليتان، البياض الكالح، بقيت أقلب في الصور بحثًا عن صور أخرى للفتاة وكل صورة أتفاجأ بمدى التشابه الغريب بيني وبينها حتى شعرت بأحدٍ يلمس شعري.

انتفضت مع صرخةٍ خفيفةٍ ونظرت إلى "سلام" الذي نظر إلى هاتفي ونظر إليّ متسائلا:

- ليه صاحية كل ده؟ الشمس قربت تطلع؟

- عرفت منين إني هنا؟

- ما لقتكيش في أوضتك قُلت أكيد هتبقي في المكتبة.. أنا بس كنت عايز أعتذر لك إني ما حضرتش عرضك النهار ده.

نظرت إليه بلا مبالاة ثم نظرت أمامي وأنا أتنهد فضحك سلام بصوتٍ عالٍ، التفتُّ إليه بعيون متسائلة وكأنه قرأ السؤال في عيني:

- أصلك غريبة قوي يا تِبْر ما أنا وإنتِ عارفين إنك مش بتحبيني.

لم أعلق، دققت في عينه السوداء الضيقة وأنا أسترجع تاريخ علاقتنا، سلام هو تلميذ والدي كان يأتي إلى والدي كل يوم ليأخذ الخبرة والعلم، وفور أن رآني أحبني، حاول كثيرًا التقرب مني، أنشأ عيادته الخاصة وهو لا يزال يحبني إلى أن مات والدي وقررت أن أتابع أبحاثه وتجاربه فاستعنت بسلام لقربه الدائم من والدي وقت حياته وقرر سلام ترك العيادة وكل شيء من أجل مساعدتي والبقاء بجانبي، من وقتها تحول سلام المعالج النفسي إلى عاشق التِّبْر.

ابتلعت غصتي وأنا أقول بثبات:

- مش يمكن اتعودت عليك، وارد أكون حبيبتك بس مش بنفس درجة حبك ليا؟

كدت أكمل كلامي حتى قاطعني بلغة عربية فصحى قائلًا:

- أنتِ لا تعرفين درجة حبي.. لأنك يا سيدتي التِّبْر، والتِّبْر يستحيل أن يعشِق لكنه يُعشق، ولمس التِّبْر تدنيس له لكن فرط الجمال يشعل شهوة اللمس بداخلي.. ربما الابتعاد عنكِ قليلا بقدر العذاب هو حفاظ على ذلك الخيط الرفيع الواصل بيننا.

صمت، دائمًا الصمت هو الحل الأنسب في تلك المواقف، حاوط رأسي بكفيه وقبّلني.. قبلة شعرت فيها بالشعلة التي كان يتحدث عنها، ابتعدت عنه برفق ومسحت بيدي على شعره الأسود الذي يصل إلى كتفه ثم وضعت يدي على ذقنه الحليقة دائمًا:

- عمرك ما هتبطل تحسسني إنك ضحية أفعالي.

أزاح يدي من على وجهه ووقف:

- أنا ضحية مشاعرك، أفعالك دي حاجة تانية لكن سلام طول عمره ضحية مشاعرك.

استدار ليمشي فقاطعته بصوتي:

- ابقى افتح الأوض المقفولة وجهزها كويس علشان احتمال يجي زاير قريب.

التفت إليَّ وقال باستعجاب:

- نويتِ ترجعي للمجال تاني؟

- مش عارفة بس أعتقد إن هلال رفعت يستحق إني أرجع.

***

وبعد بضع ساعات وجدت نفسي عند هلال في الجامعة انتظرته طويلًا حتى أنهى محاضراته، لم يكن يعلم بقدومي وذلك ما جعل حضوري مختلفًا، دخل مكتبه فدخلت وراءه وأغلقت الباب، أفلت الحقيبة من يده وتأملني بدهشة، اقتربتُ منه وقلت بابتسامة:

- هو إنت كل ما تشوفني هتستغرب؟

نظر إليَّ ثم استطرد قوله بتوتر:

- ما ك.. ما كنتش متوقع مقابلتنا التانية هتبقى سريعة كده.

- كان لازم تتوقع وجودي.

مررت بيدي على مكتبه ووقفت أصابعي عن ورق في ملف كتب عليه " سيكولوجية الشر ".

- لسّا مقتنع برأيك اللي قُلت لي عليه إمبارح؟

- أنا يومي كان طويل قوي في الجامعة خلينا نتكلم وقت تاني.

أمسكت بذراعه:

- ما فيش وقت تاني.. لسا مقتنع؟

أفلت ذراعه من يدي وقال بغضب مكتوم:

- أنا ما بغيرش أفكاري.

- يُحكى أنه كان هناك راهب صالح اسمه برصيصا العابد.. تعبد برصيصا ٧٠ سنة وانتهت حياته بأنه أشرك بربه وقُتل لأنه زنى وقتل نفسًا.

تنهدت ونظرت إلى الورق مرة أخرى:

- تفتكر إيه اللي وصل برصيصا لكده؟ وما تقولش الشيطان، ما تفتكرش إن الشيطان هو اللي خلاك السبب في موت بنتك.

راقبتُ ملامح وجهه وهي تتغير إلى صدمة، استجمع قوته:

- إنتِ عايزة إيه؟

- أنا برضو قُلت مش كل واحد هيشوف واحدة شبه بنته هيسرح في وشها إلا لو كان فيه سبب خفي.

ابتلع غصته وأخذ حقيبته وفتح باب المكتب ليرحل.

- مش ملاحظ يا هلال إني عارفة عنك كتير، مش مكلف نفسك ثانية طيب تعرف سبب وجودي؟

توقف وقال لي وهو لا يزال واقفًا أمام الباب:

- مش مضطر أكلف نفسي في التفكير في واحدة جاية تستعرض نفسها.

- أنا بعرض عليك تجربة نفسية، عن سيكولوجية الشر هتنفعك.. وعلى فكرة أنا مش بستعرض نفسي.

مررت ووقفت أمامه:

- أنا وأنت رابطنا مصير أنتَ لسا مش عارفه.. مقابلتنا مش صدفة وأنا في شغلي مش بهزر.

وضعت ورقة في جيب المعطف.

- هستنى تليفونك ولو ماكلمتنيش هبقى أكلمك.

***

_٣_

"فدوى"

عندما ألمس التشيلو أشعر بهبة الله لي.. الموهبة حتى من اسمها هبة! مؤكد إنني لست وحدي من أمتلكها لكن أعتقد أنه لا يوجد أحد بموهبة إلا وكان محظوظًا، لمْس الأوتار هو المنفذ من الواقع بكل مشاكله، بداية العزف هي تفريغ كل الطاقة وإخراج المشاعر السلبية، إخراج الألحان هو النشوة التي تتسلل إلى روحك فتذيب كل السواد الداخلي.

توقفتُ عن العزف حينما دخل هلال إلى المنزل، بدا وكأنه شارد وليس في حالته العادية سألته عن سبب تغيره، لم يجب، خلع معطفه ثم القميص وألقى بنفسه على الأريكة وهو يتنفس بعمق كأنه يحاول التخلص من قيد ما.. هدأ قليلا ثم نظر إليّ وسألني:

- إنتِ ما حستيش إن تِبْر اللي قابلناها إمبارح شبه إيلاف؟

لم أجِب؛ لا أحب التحدث في ذلك الموضوع.. ظل هلال ناظرًا إليّ ينتظر إجابتي فأجبت بصوت خفيض: "لا" فظهرت علامات الشك على وجه هلال.. حاولتُ عدم حك أنفي أو المسح على شعري، حاولت عدم اللعب في أصابعي والنظر إلى هلال بأعين ثابتة لكن عيناي كانتا تهربان من مواجهته.. لم أستطع الكذب، يصعب عليّ أن أكذب خاصة وأنا أكذب على هلال.

ابتلعت غصتي ونظرتُ إليه:

- آه حسيت بشبه وشبه قوي كمان بينها وبين إيلاف هيفرق معاك في إيه؟

- افتكرت إنه بيتهيأ لي أو نسيتِ إيلاف.

جلست بزاوية قائمة وأنا أشعر بغرابة من جملة هلال، استمررت بالنظر إليه حتى انفجرت بالضحك وأنا أقول وسط ضحكي:

- طب دا أنا بالذات أكتر واحدة ما ينفعش تنساها.. أنا مش مصدقة إنك فاكراني هنسى بنتنا يا هلال!

توقفت عن الضحك وتأملت "هلال" الذي طأطأ رأسه، رفعت ذقنه بإصبعي الإبهام والسبابة وجعلته ينظر إلي:

- إوعى تفتكر في يوم إني على مدار السنتين دول نسيت إيلاف لو لحظة.. أنا بعمل نفسي ناسية يا هلال علشان ما ينتهيش بيك الطريق وأنت غرقان في أمراضك النفسية.

ابتعد عني وصمت لوهلة ثم اعتذر وهو يأخذ معطفه وقميصه ويدخل إلى الغرفة، ابتسمت بسخرية من رد فعله مهما كان مرارة شعوره هو لا يضاهي شعوري، ومهما حدث هو لن يستطيع الشعور مثلي.

***

مقترف الذنب لا يحتاج أي شيء سوى الشجاعة لطلب العفو من الله، والشجاعة لمواجهة العالم بذنبه والشجاعة لتحمل العواقب.. لكن هل فكر أحد ما الذي يحتاجه مقترف الذنب لحظة اقتراف ذنبه، أعتقد أنه كان بحاجة لبعض العقل ربما سيتوقف ويحفظ نفسه وغيره من الأذى وذلك ما لم يمتلكه هلال لحظة اقترافه لذنبه أي لحظة إدمانه.

كان مغيبًا، حاولت مرارا وتكرارا منعه من أخذ المخدر اللعين، لم أفكر يومًا في السؤال عن سبب إدمانه، فقط ما كنت أريده الحفاظ على عائلتي والحفاظ على صورته بعين إيلاف، إلى أن اعتدى عليَّ ضربًا وأنا أحاول منعه، وقتها لم أستطع التحمل، كانت روحي ثقيلة من الحزن، وجسدي يتحرك بصعوبة من الألم، ارتديت ما أمامي من ملابس لستر جسدي الذي ملأته الكدمات وأخذت إيلاف التي كانت في السابعة من عمرها، أتذكر ملامح الخوف من والدها ودموعها المنهمرة ونحن نركب السيارة.

قدت السيارة بأقصى سرعة وسط دموعي وحزني على كل شيء، على نفسي وعلى حال هلال المتدهور وعلى إيلاف، لم أشعر بأي شيء إلا والسيارة تنقلب بي أنا وإيلاف، فتحت الباب المهشم وسقطت أرضًا.. الدماء تسيل من رأسي.. أزحف على الطريق؛ وصولًا لإيلاف بالجزء الخلفي من السيارة.. أراها مشوهة، أكاد لا أرى ملامحها من الدماء، لا أعلم حتى إن كانت تتنفس أم لا..

استمررت في الزحف على يدي، وتصطدم رأسي بالأسفلت وأنا لا أستطيع لمس إيلاف..

مسحت دموعي المنهمرة وجذبت التشيلو، أعزف على الأوتار بعنف فأخرج نشازًا يزعج أذني، أتذكر كل لحظة بعد الحادثة.. إخبار الطبيب لي بموت إيلاف وأنني أصبحت قعيدة، يستمر النشاز بالخروج وأرى "هلال" وهو يقبل قدمي لأعفو عنه ويعدني بأن يتعافى، أصابعي تؤلمني من شد الأوتار، أعلم بسوء حالة هلال في المصحة ومحاولته الانتحار، شددت الأوتار بكل أصابعي حتى انقطع وتر من التشيلو وأرى "هلال" يعود لي وهو لم يعد الزوج أو الحبيب؛ أصبح العبد المذنب.. الذي عاش طوال سنتين يطلب السماح من الخالق والمخلوق.

نظرت إلى الوتر المقطوع في يدي، ضربت التشيلو بقوة فوقع أرضًا ووضعت يدي على وجهي وأنا أبكي.. أبكي بكل حسرة.

فتح هلال الباب وجاء إليَّ.. جلس على ركبتيه وهو يقبل يدي والدموع متجمعة في عينيه.. مسحت دموعي ووضعت يدي على وجه هلال ثم ارتميت بين ذراعيه والدموع تنزل ببطء وبهدوء.

***

_٤_

"هلال"

في منتصف الليل خرجتُ من غرفتي ومعي غطاء لفدوى التي كانت غارقة في نومها على كرسيها المتحرك، حملتها ونقلتها إلى السرير وأنا أدثرها بالغطاء جيدًا، مسحتُ على شعرها ووقفت وأنا أتنهد، لو استطعت فقط.. لو كان بيدي إصلاح كل ذلك ما كنت لأتأخر، انحنيت وهمست في أذنها: "من قمتِ باختياره لم يقدر نعمة أن يكون مختارًا منك".

قبلت رأسها ووقفت وأنا أطبق عيني بشدة محاولًا منع نفسي من البكاء وخرجت.

بقيت أسير بشكل عشوائي في الشوارع حتى الصباح؛ أُعيد التفكير في كل لحظة في حياتي منذ لقائي بفدوى، أتذكر أول يومٍ رأيتها فيه كنت مدعوًا لحفلة بالأوبرا من قِبل طالب لدي، نشأتْ بيننا علاقة صداقة بسيطة فقام بدعوتي لتلك الحفلة لأشاهده وهو يعزف على الكمان وعند ظهوره على المسرح ظهرت معه فدوى في فستان فضي بسيط وعزفت معه مقطوعة لم أنسَها يومًا ولم يختفِ وجه فدوى من عقلي وقتها، من وقتها أحببت سماع التشيلو وأنا لم أكن أهوى الاستماع له يومًا وأصبحت أتردد دائمًا على الأوبرا؛ قاصدًا رؤية فدوى حتى تعلقنا ببعضنا بعضًا وتزوجنا.

سمعت صوت رسالة من هاتفي فأخرجته وفتحتها، كانت من رقم غير معروف لكنني أدركت أنها هي.

- استنيت مكالمتك مش عايز تقابلني ونتكلم؟

أغلقت الهاتف وكدت أضعه في جيبي ثم أخرجته مرة أخرى وراسلتها: نتقابل فين؟

وفي أقل من دقيقة وجدت "تبر" ترد:

- خطوة كويسة... قل لي إنت فين ونتقابل.

***

صافحتني تبر وجلست ثم نظرت إلى أعقاب السجائر المطفأة أمامي: متوتر؟

أخفضت يدي التي كان بها سيجارة مشتعلة:

- لو ما بتحبيش السجاير قوليلي أطفيها.

- لا عادي.. أنا كمان بدخن ساعات خصوصا لو في حالة شبه حالتك.

- ما لها حالتي؟

- يعني مش نايم كويس.. جفونك حمرة من العياط.. إيدك بترعش.. أنفاسك مش بتخرج بثبات.. مش إنت لوحدك اللي بتعرف تقرأ اللي قدامك.

كنت سأبدو ساذجًا للغاية لو سألتها كيف علمت إني موهوب بذلك، من الواضح نظرات عيني المشتتة عليها في كل اتجاه عليها، أطفأت السيجارة وشبكت أصابعي:

- احكي لي أكتر عن تجربتك.

- التجربة بكل بساطة عبارة عن خمسة أيام، أربعة أيام هيتم فيهم تنويمك تنويمًا مغناطيسيًّا، التنويم هيوصلك لأعمق نقطة في عقلك الباطن كل اللي بتهرب منه من يوم ولادتك هيظهر في التجربة دي واليوم الخامس هنلاحظ النتيجة سوا.

- وأنا وإنتِ مستفيدين إيه؟

- أنا مستفيدة نجاحي ونجاح أبحاث أبويا اللي هتغير كتير في عالم العلاج النفسي، وأنت مستفيد إنك بعد خمسة أيام هترجع بلا ذنوب وبلا خطايا كأنك طفل لسا مولود.. أظن أنت محتاج الفرصة دي؛ اللي مريت بيه ما كانش كويس.

- أنتِ ما عندكيش علم أنا مريت بإيه.

- حاجة غير الإدمان وغير موت بنتك وعجز مراتك؟ هو طبعا كل ده قضاء و...

قاطعتُها بصوت خفيض وأنا أبتلع غصتي بصعوبة:

- كل ده؟ عرفتِ إزاي كل ده؟

رأيتُ ابتسامة الثقة على شفتيها وهي تقرب رأسها مني:

- أنتَ مش أي حد يا هلال.

- ليه أنا؟

- علشان إنت محتاجني أكتر ما أنا محتاجاك.. عارفة إنها مش إجابة وافية لكن كل شيء هتفهمه قريب صدقني.

تأملتُ عينيها كانت صادقة رغم عدم فهمي كيف ظهرت من عدم وعلمت عني كل هذا، ربما هي محقة.. ربما تقابلنا ليس صدفة وتشابهها بابنتي ليس صدفة، نظرت إلى باب المقهى فكرت في الخروج لكن قدمي لم تطاوعني، نظرت إليها مرة أخرى:

- أنا محتاج وقت أفكر.

تفهمت تبر وطمأنتني على سلامتي العقلية والنفسية وإن التجربة لن تعرضني إلى أذى، لكن خوفي لم يكن من الأذى؛ خوفي كان من التجربة بأكملها وأن عقلي سيكون بين يدي تلك المغرورة، تأملت عينيها الواثقتين من موافقتي والصادقتين في كل كلمة قالتها، أدرك أنني لا يجب أن أتخذ قرارًا مثل ذلك في حالة مثل حالتي، أدرك أنها تتلاعب بعقلي وبضعفي، أدرك أن بداخلي شغف معرفة ما تخفيه وما تريده، أدرك أنني سأبلغها موافقتي ... لمَ لا؟

- أنا موافق يا تبر تحبي نبدأ إمتى؟

ارتسمت على وجهها ابتسامة واسعة وأجابتني:

- أي وقت تختاره لكن لازم تعرف إنك الخمسة أيام دول هتقيم عندي.

نظرت إليها بتعجب فاستردت قولها: أنا مش هبقى لوحدي؛ هيكون معايا سلام دكتور برضو هيساعدني.

- يبقى إديني وقت أحضر نفسي وأحضر حاجاتي.

أخرجت هاتفها وراسلتني:

- بعتلك عنواني هستناك.

همت بالوقوف وهي تأخذ حقيبتها وتستعد للرحيل:

- وافرضي ما جيتش؟

- هتيجي ما حدش بيوعد تبر ويخلف بوعده.

ابتسمت وهي تغمز وأسدلت شعرها البرتقالي المموج على ظهرها ثم رحلت، ابتسمتُ بسخرية من ثقتها بنفسها وهي واثقة من قدومي وأنا واثق أنني لن أستطيع الخلاف بوعدي معها، اللعنة على الخصلات البرتقالية وما تفعله!

***

مر يومان أخبرت فدوى بأنني سأسافر في بعثة تابعة للجامعة وسأبقى لمدة خمسة أيام، لا أعلم كيف أصبحت طائشًا إلى هذا الحد لأخذ تجربة أو تحدٍّ مثل ذلك، بدأت أشعر بأني مراهق ذو ١٨ عامًا يخبر أهله بأنه ذاهب إلى درس خصوصي بينما هو سيذهب في موعد مع صديقته الطائشة مثله أو سيذهب للتدخين مع أصدقاء السوء.

- هتغيب؟

نظرتُ إلى فدوى التي كانت جالسة بجانبي في السيارة ونظرتُ أمامي قائلًا:

- مفتكرش.

- هلال، حاول وأنت هناك تفصل من الشغل؛ أنتَ محتاج تجديد من كل ده.

- إيه كل ده؟ ما إحنا كويسين؟!

- لا مش كويسين.. أنا مش كويسة.

نظرتُ إليها ثم نظرت أمامي حتى وصلنا إلى جهتنا المطلوبة، وجهت جسمي إليها:

- لو عايزاني أفضل.. هفضل.

- لو عايز تفضل كنت لفيت ورجعنا البيت تاني.. هلال أنا مقدرة وفاهمة، سافر وما تقلقش عليا.

أفهم احتياجها لي لكن لم يكن ذلك غرضها من تلك الكلمات، فدوى خائفة.. خائفة من شيء ما لا أدركه، جذبت رأسها إلى صدري واحتضنتها.

- بلاش تغيب.

- خمسة أيام أوعدك مش هطول عن كده.

ابتسمت فدوى وهزت رأسها، ساعدتها في النزول وودعت فدوى وداعًا حارًّا بعدما أوصلتها إلى صديقتها لتقيم معها وتعتني بها حتى موعد عودتي، وذهبت إلى بيت تبر.

-اليوم الأول-

كان أبيض اللون حوله الكثير من الزرع والزهور طرقت الباب بمقبض نحاسي عتيق؛ لم يكن هناك جرس كهربائي مثل البيوت العادية ففتح شاب في الثلاثين من عمره كان شعره أسودَ طويلًا مربوطًا بربطة شعر صغيرة وذقن حليقة، كان يرتدي رداءً أزرق اللون مزخرف بمثلثات صغيرة على أطراف الرداء.

نظر إليّ الشاب نظرةً تفصيليةً على قميصي وبنطالي القماشي وعلى لحيتي غير المشذبة وشعري الذي لا يقل سوء حال عن شكل لحيتي؛ لم أكن في حالة مزاجية تجعلني أتأنق للقاء السيدة تبر.

قال الشاب بنبرة تبعتها تنهيدة:

- هنحتاج نوضب كتير فيك.

- نوضب إيه؟

- نوضب شكلك البايظ ده.. الحالة المزاجية مهمة برضو يا دكتور علشان كده لازم تكون في شكل كويس.. نسيت أعرفك بنفسي، أنا سلام.

ابتسمتُ ابتسامة صغيرة وأخبرته بأن تبر أخبرتني عنه.. استقبلني سلام وأخذ حقيبتي مني وهاتفي وحتى ساعتي ومحفظتي، أخبرني أنني لست بحاجة لهم طول مدة بقائي.. لم أجادل كثيرًا أنا كنت في أمّس الحاجة إلى التغيير.. ثم بعدها اصطحبني إلى غرفتي، كانت باللون الأزرق وبعض النباتات الصغيرة على سور الشرفة ورائحة التوت تفوح منها، تنفست براحة وأحسست ببعض الاطمئنان، بعدها فتح سلام باب الحمام المرفق بالغرفة، دخلت وراءه ونظرت إلى حوض الاستحمام المملوء بسائل وردي اللون.

- دي مجموعة من النباتات الطبيعية وبعض أنواع الزهور.. تبر هي اللي عملت التركيبة بنفسها علشان تساعد على الارتخاء والراحة النفسية.

- هو أنتم بتعملوا هنا التجارب دي كتير؟

- مش طول الوقت.. تبر من النوع المحب للفن أكتر لكن صدقني الطب النفسي خسرها.. أنا هسيبك تغير هدومك وتنزل في الحوض عقبال ما أجيب لك الهدوم اللي هتقعد بيها.

- وليه مقعدش بهدومي؟

- دي قوانين تبر يا دكتور.

تركني أتأمل الحمام ونظرت إلى الحوض المملوء ووضعت يدي فيه.. كانت المياه دافئة وعطرة.. خلعت ثيابي سريعًا وانزلقت في الحوض الدافئ.

رغم إحساس النشوة الذي بدأ يتسلل إلى جسدي لم أستطع التوقف عن التفكير في تبر وتجربتها ولماذا أنا؟ ولماذا أنا هنا؟!

انغمست أكثر في حوض الاستحمام معلنًا الهروب من أفكاري اللعينة.. أعتذر أنا لا أتحمل تفكيري.

***

بعد وقت لم أستطع معرفته لكن أعتقد أنه كان طويلًا، لبست الملابس التي أحضرها لي سلام كان رداء أبيض عليه خيوط ذهبية بسيطة.. نظرت إلى نفسي في المرآة باستغراب أشعر كأني لا أعرفني بعد أن قص سلام شعري وحلق لحيتي.. أصبح الإرهاق صورة اعتدت عليها.

- شكلك كأنك عريس.

ضحكت على جملة سلام وقلت له وأنا أتأمل نفسي مرة أخرى:

- هو أنا مش هشوف تبر؟

- هي مستنية تشوفك.

قادني سلام إلى غرفة أخرى لونها أبيض كل ما فيها جرامافون عتيق وكرسي للاستلقاء وتبر، كانت تنظر إلى النافذة، شعرها البرتقالي المموج منسدل على فستان طويل باللون الأبيض الناصع يكشف عن كتفين كالحي البياض.. نظرت تبر إلي، وعلى وجهها ابتسامة، كان على رأسها طوق من السنبل ذهبي اللون كانت كأنها

خارجة توًّا من معبد اليوناني، كانت شديدة الجمال:

- مبسوطة إنك جيت.

اكتفيتُ بكلمة شكر بسيطة بعدها طلبتْ تبر من سلام الخروج وإغلاق الباب، وجهت وجهي إلى سلام الذي نظر إلى تبر نظرةً غريبةً لم أستطع فهمها لكنه لم يكن راضيًا على طلب تبر له بالخروج.. لم يعلق سلام، نظر إليّ ولتبر نظرة أخيرة ثم خرج.

- ارتاح يا هلال.. اقعد في الوضع اللي يريحك.

استلقيت على الأريكة ونظرت إلى تبر، سحبتْ تبر كرسيًّا وهمستْ في أذني:

- ارفع عينك لأعلى نقطة تقدر تبصلها وركز عليها كويس لحد ما عينك تتعب وتقفل لوحدها.

بقيت ناظرًا إلى النقطة بينما شعرت بتبر تتحرك من جانبي وهي تقول:

- إيه أكتر حاجة بتهديلك أعصابك.

أجبت سريعا:

- السجاير!

ضحكتْ تبر واتجهت ناحية الجرامافون لتسمعني سيمفونية قديمة أعتقد أنها لموزارت، كنت بدأت أشعر بالتعب من النظر فأطبقت عيني بهدوء.

جلستْ مرة أخرى بجانبي، وضعت يدها على أوردة يدي وهي تجس نبضي وهمست في أذني بصوت كان بالنسبة لي أفضل من سيمفونيات موزارت كلها وقالت:

- لما دقات قلبك تهدا هنبدأ.. حاول تسترخي.

- بحاول.

مسحت على شعري ثم وضعت يدها على وجنتي

- عارف إنت جذاب جدًّا بالنسبة لي.. فدوى محظوظة بيك.

شعرت بقلبي وهو يكاد يخترق ضلوعي خاصة عندما شعرت بسخونة أنفاسها وهي تقول:

- احكي لي عن فدوى أكتر.. بتحبها؟

- الحب في قلبي موجود ليها.

- حاسس بالشفقة نِحيتها؟

- حاسس بالذنب نحيتها.

مسحت على وجنتي وأمسكت يدي، سحبت نفسًا وأخرجته في هدوء محاولا تهدئة نفسي.

- وإيلاف؟

- جزء من الجنة كان صعب واحد بإهمالي تفضل في إيده فترة طويلة.

- كلامك حكيم.

- كلامي عادي.. أو أنا اتعودت عليه.. أنا كنت بكتب في وقت من الأوقات.. والزمن بيخلي الواحد ينضج.

- ومكملتش كتابة ليه؟

- ملقتش الوقت الكافي بعد الجواز.

- قصدك ملقتش النشوة اللي أنت محتاجها مع فدوى علشان تكتب.

ابتلعت غصتي وأزحت يدها بعيدًا عن وجهي وسحبت يدي من يدها وأنا أقول بصوت متوتر:

- ضربات قلبي مهدتش؟

- بالعكس زادت.. واضح إن كلامي مؤثر.. هلال أنا لو منحتك النشوة اللي تستحقها هتكتب؟

فتحت عيني ونظرت إليها وأنا أهم بالقيام:

- كفاية.

قامتْ من مكانها وحاصرت كتفي بيدها وهي ترجعني للاستلقاء مرة أخرى.

- لو شوفت إيلاف حتى لو في خيالك هتكتب؟

تمتمت بغضب:

- كفاية.

ابتسمت ابتسامة صغيرة وحاوطت وجهي بيدها:

- عند تبر مفيش كفاية.

حاصرت شفتي بقبلة جعلت أعصابي انسيابية، أغمضت عيني وغبت عن الوعي تمامًا.

***

البوابة الأولى

مصر القديمة

_٥_

"هلال"

فتحت عيني، أسحب أنفاسي وأخرجها بصعوبة، هل آخر شيء رأيته قبل مغيبي عن الوعي كان حقيقيًّا؟، فتحت عيني وأغلقتهما أكثر من مرةٍ محاولًا استعادة وعيي ونظرت حولي باندهاش.

أين أنا؟! أين تبر والأريكة والجرامافون؟

نظرت حولي، كانت الغرفة واسعة والسقف عالي الارتفاع.. كأنها غرفة في قصر، مضاءة بشعل من النيران والغرفة بها أعمدة شاهقة مزخرفة بالرسوم والألوان، هذا ليس حقيقيًّا.. هذا في عقلي فقط.. ذلك نسج خيالي، إذن في أي بقعة أنا في خيالي الآن.

سمعت صوت أقدام قادمة ويبدو أنهم أكثر من شخصٍ فاختبأت وراء أحد الأعمدة، ظهرت عشرات الفتيات وهن يمشين في صفين يزعمهما سيدة كهلة أعتقد أنها المسئولة عنهن، هيئة الفتيات من ملابسهن وتسريحات شعورهن تذكرني مصر القديمة، نظرت إلى تصميم الغرفة مرة أخرى.. أنا في العصر الفرعوني! كيف لم أدرك ذلك؟!

تنهدت وأنا أنظر بعيني إلى الفتيات اللاتي تفرقن وبعضهن جئن إلى المكان الذي كنت أختبئ فيه..

تعجبت من أنهن كن غير مهتمات بوجودي وتوجهت إليّ فتاة كانت ممسكة بمرآة فوقفت أمام المرآة فلم أرَ أي صورة لي على المرآة، إذن أنا غير مرئي ذلك سيسهل اكتشاف مغزى وجودي هنا، نظرت حولي بِحيرةٍ حتى وقعت عيناي على فتاتين كانتا تضحكان كثيرًا عكس باقي الفتيات، أعتقد أنهما الوحيدتان اللتان تُحدثان ضوضاء هنا وكانتا تتحدثان بلغة غير مفهومة، اقتربت منهما محاولًا فهم كلامهما لكن لم أستطع فهمه حتى جاءت السيدة الكهلة وقالت بلهجة صارمة:

- توقفا عن الضحك والعبث وتحدثا العربية.. إن تحدثتما بالعبرية مرة أخرى ستقضيان اليوم كله في تنظيف القصر.

خفضت الفتاتان رأسهما واعتذرتا وبمجرد أن أعطت السيدة الكهلة ظهرها إليهن أخرجت فتاة لسانها إلى السيدة الكهلة وهي تنظر إليها بغيظ بينما ضحكت الأخرى في صوت خفيف، كانت الفتاة المتمردة غير عربية على ما أظن، كانت شقراء وبيضاء اللون وعيناها زرقاوان، والأخرى لم أستطع تحديد عرقها لكنها كانت جميلة، شعرها بني مائل إلى الحمرة وبشرتها مشربة بحمرة زادتها جمالًا وعيناها من اللون البني الداكن.

قالت الشقراء:

- تحدثي بالعربية، لا أريد أن ينقلب مزاجي في يومٍ مبارك مثل اليوم.

- ماذا سيحدث اليوم؟

- ألم تعرفي أن الفرعون سيعود اليوم من الحرب؟

- إذن.. ما المبارك في ذلك؟

- اديرا توقفي عن سذاجتك.. مؤكد سيحتاج الفرعون وحاشيته إلى حفلة صغيرة الليلة بمناسبة عودتهم ومؤكد سيقع الاختيار علينا؛ نحن من أجمل الفتيات هنا.

ضحكت اديرا وهي تجدل شعرها الطويل الناعم:

- توقفي أنت عن خبثك.. أعتقد أن الفرعون سيقضي الليلة مع الملكة تيتي.

ضمت الفتاة ذراعيها إلى صدرها في غرور:

- وهل الملكة تيتي أجمل مني؟

- اوهانا، كلمة أخرى منك وستسمعنا السيدة لؤلؤ وسيكون عقابنا عسيرًا.

- حسنا حسنا، وماذا عن الوزراء والكاتب الملكي ونائبه السيد كاي.. ألن تطمحي يوما أن تاتي بابنك من وزير أو أن يكون ابنك من الفرعون ويكون هو ولي العهد؟

نظرت اديرا إلى اوهانا ولم تعلق، انتهت من جدل شعرها وذهبت إلى مكان آخر بعيد عن اوهانا.

***

الأجواء خارج القصر كانت مليئة بالضوضاء؛ من الاحتفالات والفرحة برجوع الفرعون كانوا يهتفون جميعا باسم الفرعون وملك مصر رمسيس الثالث، دخل الفرعون بموكبه وهو محمول على الهودج يوجه الابتسامات والتحية لكل أفراد شعبه السعداء بانتصارٍ آخر من انتصارات الملك، أما عن القصر فبمجرد أن دخل الهودج من باب القصر اجتمع الخدم والحشم جميعهم واصطفوا على جانبي الطرقة وهم راكعون، وفي آخر الطرقة كانت تقف الملكة تيتي في ثوب ذهبي اللون مزخرف بالأحجار الكريمة وبجانبها ابنها الصغير رمسيس الرابع ومن وراءهم كرسي العرش.

نزل الفرعون من على الهودج وحيا تيتي بابتسامة واسعة ثم جلس على كرسيه وجلست تيتي بجانبه، تفرق الخدم وعاد كل منهم إلى عمله إلا السيدة لؤلؤ، وقف بجانب الفرعون رجل طويل القامة على الأحرى هو نائبه كاي وانحنى وهو يهمس في أذنه:

- مولاي، السيدة لؤلؤ سعيدة بعودتك مرة أخرى فإن كنت لا تمانع أن تقيم حفلة صغيرة لك احتفالًا بعودتك منتصرًا.

نظر الفرعون إلى كاي بتململ، ونظر إلى لؤلؤ التي كان تقف احترامًا للفرعون وزوجته

- أوافق على قيامها لكن أخبرها أني أريدها حفلة صغيرة لا يحضرها إلا أنا وأنت.. واحرص بنفسك على رؤية تجهيزات الحفل.

انحنى كاي وخرج من الغرفة وأمامه لؤلؤ وذهبا إلى غرفة الجواري، اصطفت الجواري ومر كاي على كل جارية يتأمل وجهها

حتى وقف أمام اديرا واوهانا:

- هاتان يا سيدي أجمل جاريتين هنا.

- أرى ذلك.

رفع كاي وجه اديرا بيده وتأمل جسدها ووقع الاختيار عليها، تأمل اوهانا ورفع وجهها بيده فرفعت اوهانا عينيها ونظرت إلى كاي بابتسامة، تعجب كاي من نظرة اوهانا له، اتسعت ابتسامة اوهانا وطأطأت رأسها بين يده باحترام، رفع كاي رأسه، وعلى وجهه ابتسامة كبرياء وأشار للؤلؤ بضمها هي الأخرى إلى الحفل.

***

في الحفل كانت الجواري تغنين وتعزفن وكاي يستمع إلى العزف وهو يشرب النبيذ بينما كان رمسيس الثالث شاردًا، ترك كاي الكوب من يديه ونظر إلى الفرعون:

- مولاي.. هل الحفلة لم تنل إعجابك؟

- في ذهني أهم من تلك الحفلات السخيفة.

- وما الذي يشغل ذهن الفرعون؟

- الليبيون تجرؤوا على إعلان الحرب عليّ، يريدون احتلال مصر.. الطامعون لا يتوقفون عن التفكير في مصر وكيفية نهب خيراتها.. بداية الهكسوس والآن الليبيون.

- إن أراد الفرعون إبادة كل الليبيين سيبادون في يوم وليلة.

- جيش الليبيين قوي ليس كما تظن إن أرادوا هم إبادتنا سيفعلون ذلك.. لكن ليس وأنا على كرسي العرش.

- ما الذي يخطط له مولاي؟

- معركة تلقنهم درسًا قويًّا لا ينسوه، لقد قمت بتخطيط المعركة كلها ذكرني أن أريك المخطوطات غدًا.

- أمر جلالتك.

انتهت الفتيات من الغناء وتوقفت الفتيات عن العزف لوهلة قبل أن يغيرن اللحن الذي يعزفنه وتدخل الراقصات من بينهن اديرا واوهانا، انتبه الفرعون إلى الراقصات تحديدًا اديرا ولاحظ كاي ذلك

بينما اوهانا كانت تتعمد رفع عينيها بين الحين والآخر على كاي، انتهى العرض الراقص فمال كاي على الفرعون وهمس:

- ما رأيك بالفتاة صاحبة الشعر الكستنائي؟

- تبدو جيدة.

- إن كنت تريد...

قاطع الفرعون كاي بإشارة من يده بأن يتوقف عن الحديث، تأمل اديرا الراكعة على الأرض، رفعت اوهانا عينها ونغزت اديرا لترفع عينها هي الأخرى فرأت الفرعون وهو يطيل النظر إليها، احمرت اديرا خجلًا وأخفضت عينها مرة أخرى.

- أفضل قضاء الليلة بمفردي.. إن كنت أنت لا تريد قضاء الليلة وحيدًا فلك حرية الاختيار.

وقف الفرعون ووقف كاي تحية له ثم خرج الفرعون ومعه حراسه، انتظر كاي خروج الفرعون وأمر الجميع بالخروج وعند خروج اوهانا ناداها كاي وأمرها بالانتظار.

خرج الجميع ووقفت اوهانا أمام كاي تطأطئ رأسها في خجل مصطنع.

- أخبريني باسمك.

رفعت رأسها وقالت بابتسامة: خادمتك اوهانا يا سيدي.

***

في اليوم التالي.. كان الفرعون يقف وعلى الطاولة أمامه مخطوطات وبجانبه كاي وهما يخططان للمعركة.

- قضيت ليلة جيدة يا كاي؟

نظر كاي إليه وقال باستحياء:

- أعتقد أنني كنت في حاجة إلى راحة يا مولاي.

نظر إليه الفرعون وابتسم:

- أنت صديق مخلص يا كاي وذلك ما جعلك نائبي الخاص.. لا مانع من بعض التنازل عن منصبي والتحاور كأصدقاء.

- هذا شرف لي يا مولاي.. إذن إن كنا سنتحدث كأصدقاء لمَ فضلت قضاء الليلة وحيدًا.

تنهد الفرعون:

- المنصب يا كاي.. المنصب يُحرم على المرء المتعة في بعض الأحيان.. ربما ليلة أخرى.

- آمل أن يزول عنك انشغال البال قريبا يا مولاي.

***

كانت اوهانا تحكي لاديرا تفاصيل الليلة التي قضتها مع كاي، وتعابير وجه اديرا تتغير ما بين الخجل والتململ من حديث اوهانا.

- ماذا أحكي لكِ.. شعور مميز أن تستيقظي وأنتِ بين أحضان رجل ذي منصب مثل كاي.

- لقد حكيتِ كل شيء مرارًا وتكرارًا يا اوهانا!

- مسكينة أنت أليس كذلك؟ بعد أن يراكِ الفرعون ويعجب بك يقرر قضاء الليلة وحيدًا.. أظن أنك لم تنامِي جيدًا أمس.

- أنا لا أهتم بكل ذلك، حاولي فهم تفكيري.. أنا لا أريد أن أكون خادمة لدى أحدهم أنا ولدت حرة وأريد الخروج من هنا بأي شكل.. لا أفكر في كل ذلك وحتى إن كان الفرعون يريدني أنا لا أريده كل ما أريده هو حريتي.

- اخفضي صوتكِ! كيف تتجرئين على قول ذلك.

- لا أهتم.

- إذن اصمتي لأن السيدة لؤلؤ قادمة.

اقتربت السيدة لؤلؤ منهما وقالت بصرامة:

- اوهانا.. السيد كاي يريدك.

نظرت اوهانا إلى لؤلؤ في دهشة ووقفت معها لتذهب إلى كاي وقبل أن تذهب غمزت إلى اديرا بابتسامة، ضحكت اديرا بصوت خفيض على تصرفات اوهانا ونظرت إلى نفسها في المرآة.

كنت لا زلت أجهل سبب وجودي هنا لكنني كنت قلقًا على اديرا، نظرتُ إلى يدها وهي ممسكة بالمرآة ورأيت وشمًا على معصمها، كنت قرأت عن ذلك الوشم الذي يُرسم دائمًا على معصم شعوب البحر المتوسط أعتقد أن اديرا منهم؛ إذن هي أُخذت أسيرة نتيجة معركة رمسيس الثالث الشهيرة مع شعوب البحر المتوسط.

كنت أدرك أن كل ما تريده هو حريتها، هي تعلم أنها على قدرٍ كبيرٍ من الجمال، ذلك ما كانت تسمعه من كل أهل قريتها الصغيرة حيث البلد الذي جاءت منه شمال شرق مصر، أظنها لا تتذكر تفاصيل مجيئها إلى مصر لكن كل ما تتذكره أنها أُخذت أسيرة من بلدها وعندما رأى نائب الفرعون كاي حسنها ضمها إلى الجواري في القصر، لكن هي لم تكن تريد ذلك؛ هي لا تريد أن تمنح جسدها لأحد حتى لو كان الحاكم، تريد حرية العيش، حرية التحدث، حرية الاختيار.

ألقت المرآة بجانبها في غضب مكتوم وتنهدت.

***

دخلت اوهانا إلى كاي، وقف كاي أمامها في كبرياء فرفعت اوهانا رأسها إليه ولفت ذراعيها على رقبته، ابتسم كاي وأنزل ذراعيها من على كتفه، نظرت إليه اوهانا متسائلة:

- كنت أعتقد أنك افتقدتني.

- ربما، لكن أنا لم أطلبك لذلك السبب.

عقدت اوهانا حاجبيها وضمت ذراعيها إلى صدرها

- إذن ما الذي جعلك تطلبني وقت الظهيرة؟

عاد كاي إلى كرسيه وتظاهر بانشغاله بالبرديات أمامه:

- ألا تريدين أن تصبحي زوجة نائب الفرعون.. وربما الفرعون نفسه؟

- مَن في القصر لا تريد ذلك؟

- اوهانا أنت شابة طموحة وذكية وجميلة.. فتاة مثلك تستحق أن تكون ملكة.

اقتربت اوهانا من كرسي كاي وجست على ركبتيها:

- وكيف ذلك؟

- إن سرقتِ بعض المخطوطات من أجلي ستصبحين في منصب كبير في وقت قصير.

- سرقة؟! لمَ.. وسأسرقها منِ مَن؟

- من الفرعون ولا أعتقد أن السبب يهمك.

- لكن ذلك صعب يا سيدي.

- أنت لن تقومي بشيء بل صديقتك اديرا.

- ولمَ هي؟

- لأن هي من أُعجب بها الفرعون.. أقنعيها فقط واتركي الباقي لي.

***

جلست اوهانا تفكر في طريقة تقنع بها اديرا، هي تعلم أنها إن تكلمت معها ستغرقها اديرا بالكلام عن الأخلاق والتربية التي نشأت عليها في بلدها وكيف أنها خلقت حرة الاختيار و...

حرة! ذلك مفتاح الوصول إليها.

ألقت نظرة على اديرا التي كانت تخيط فستانًا بين يدها، تحركت اوهانا من مكانها وجلست بحركة مفاجئة بجانب اديرا، انتفضت اديرا من المفاجأة وغرست الإبرة في إصبعها، تألمت اديرا وسحبت الإبرة من إصبعها فأخرجت اوهانا منديلًا ومسحت إصبع اديرا الذي كان ينزف.

- دماء السيدة الحرة التي تسعى للحصول على حقها يجب أن يمسحه العبيد أمثالي.

عقدت اديرا حاجبيها ونظرت إلى اوهانا:

- لم تكن مقابلتك مع كاي جيدة؟

- أحسدك يا اديرا.. كنت أتمنى أن أكون صاحبة قرار مثلك لكن أعتقد أنني لم أخلق إلا لأكون عبدة.

صمتت اديرا بضع ثواني وراجعت كلامها مع اوهانا قبل ذهابها، قالت لها بنبرة معتذرة:

- هل تضايقتِ من حديثي؟

- لا مطلقًا.. لكن عندي لك شيء ربما يخرجك من هنا.

نظرت لها اديرا بعيون متسائلة ومنتبهة لما ستقوله اوهانا، ابتسمت اوهانا وهمت بالحديث.

***

بعد بضعة أيام، اديرا جالسة على سريرٍ في جناح الفرعون يسري في جسدها رعشة بسيطة؛ بسبب توترها، تنظر إلى الغرفة التي توجد بها المخطوطات، تخالف كل شيء تعلمته في حياتها، فقط من أجل الخروج من العبودية وحديث اوهانا يتردد في ذهنها دون توقف.

"من يسعى للحرية يجب أن يقدم التضحية التي تجعله يستحقها، صديقتي الجميلة ليس هناك شيء يُمنح دون مقابل حتى لو كان ملكك سابقا ما دام ليس بيدك يجب عليك السعي إليه"

دخل الفرعون إلى الغرفة فوقفت اديرا بتوتر وانحنت له، أمرها الفرعون بالوقوف ونظر إلى وجهها الرقيق، واديرا تحاول الحفاظ على هدوئها والذي يطغى عليه توترها، جذبها الفرعون من خصرها إليه وقبلها بحرارة.

"الفرعون أحَبك ويريدك لذا ما المانع من تقديم نفسك له لليلة واحدة، ليلة واحدة كفيلة بتغيير كل حياتك وتمنحك حريتك، وبعدها يمكنك بكل سهولة تحقيق ما نريده وتختفي أنت عن كل الأنظار"

قبل بزوغ الشمس، اعتدلت اديرا في جلستها ونظرت إلى الفرعون النائم بعمقٍ بجانبها وتتذكر تلك الساعات الثقيلة التي مرت بها معه، كل لحظة، كل لمسة منه على جسدها يجعلها تشعر بالاشمئزاز من نفسها ومنه، بحثت عن فستانها فلم تجده بجانبها فسحبت الملاءة لتستر بها جسدها وقامت من جانبه بهدوء؛ حتى لا يستيقظ وتسللت إلى الغرفة الأخرى التابعة للجناح وأخذت تفتش حتى وجدت المخطوطات.

"لا تسألي كثيرًا عن من نحن ومن نريد؛ فقط قومي بالتنفيذ، اسرقي المخطوطات واجلبيها إليّ وأعدك يا اديرا أنك في الليلة نفسها سترحلين عن هنا، وكاي نائب الفرعون سيتولى أمر خروجك من القصر دون شعور أحد، بالإضافة إلى أنه سيمنحكِ مبلغًا من المال لتبدئي به حياتك، أليس ذلك يستحق التضحية؟"

أمسكت اديرا بالمخطوطات ويدها ترتجف بخوف شديد.

"فكري يا اديرا الفرصة تأتي للشجعان فقط.. لمن يريدون الحرية فقط.. صدقيني حياتك تستحق تضحية ومخاطرة صغيرة مثل هذه"

- ماذا تعتقدين أنك بفاعلة!

التفت اديرا بخوف ونظرت إلى الفرعون الذي كان يرمقها بغضب، نظرت إليه اديرا وهي تتنفس بصعوبة وصدرها يعلو ويهبط بخوف ووقعت من يدها المخطوطات ثم سقطت مغشية على الأرض.

***

أفقتُ وأنا في حالة ذعر شديدة أتنفس بصعوبة وأنظر بخوف حولي إلى الغرفة البيضاء والجرامافون العتيق، والأريكة التي غفوت فوقها، نظرت إليّ تبر بخوف وهي تمسك يدي وتحاول أن تطمئنني:

- اديرا.. المخطوطات.. كاي.. اوهانا! اوهانا هي اللي قالت لاديرا تعمل كده.

وقفت تبر وسحبت رأسي إلى صدرها وهي تحاول تهدئتي:

- مفيش حاجة من دي حقيقية يا هلال.. اهدأ، أنا هنا.

نظرت حولي بتوتر واحتضنت تبر مثل الطفل الصغير وأغمضت عيني محاولًا تناسي كل ما رأيته.

***

_٦_

"تِبْر"

كنت أشعر بدقات قلبه، توتره وخوفه، وكنت أيضًا أشعر بنفسي وأنا ألعب على أوتار قلبه، لم أكن أكذب عندما أخبرته بأنه جذاب في نظري ولم أقصد ما حدث، لكني كنت أعلم بمشاعر هلال تجاهي، ربما مشاعر مختزنة منذ وجود إيلاف أو مشاعر حديثة الولادة، في كل الحالات كان يجب علي أن أخطو خطوة البداية.

بعد إفاقته كنت بحاجة إلى الراحة، ربما أكثر من هلال، لم أكن أعلم أن عقله قادر على وضعه في ذلك الضغط النفسي، تركته يذهب إلى غرفته ليستريح وبقيت أنا هنا. اقتربت من الجرامافون ووضعت أسطوانة المغنية المفضلة لدي لارا فابيان، كانت وستظل دائمًا ملاذي من التوتر والاضطراب بمجرد سماع صوتها تتغير كل الأمور، بدأت أتمايل بشكل عشوائي على ألحان أغنية adagio

"I don’t know where to find you, I don’t know how to reach you, I hear your voice in the wind, I feel you under my skin , Within my heart and my soul , I wait for you , Adagio"

شعرت بالباب وهو يُفتح، توقعت أنه سلام، لم أعطِه اهتمامًا واستمررت بالرقص والتمايل على أنغام الأغنية، استدرت وأنا أرقص وابتسمت إلى سلام الذي كان يراقبني:

- الجلسة ما مشيتش زي ما كنتِ عايزة؟

نظرت إليه وأنا ما زلت أرقص وأجبته بأنها كانت جيدة جدًّا، نظر إليّ سلام بشك واقترب من الجرامافون وأطفأ الأغنية.

توقفت عن الرقص ورمقته بغضب، تنهدت:

- أنا وهلال رابطنا ماضي واحد يا سلام.. أنا شوفت نفس اللي هلال شافه.

- يمكن صدفة.

نظرت إليه بتعجب وصدمة من إجابته "صدفة"؛ سلام هو أكثر شخص يعلم أن ما رأيته ليس صدفة، ووجود هلال هنا ليس من فراغ! لماذا يلاوعني ويُصر على أن يظهر بدور الساذج.

اقتربت منه وأمسكت بيده وأنا أرجوه:

- متخوفنيش منك.

ابتسم سلام وربت على كتفي وهو يحاول أن يطمئنني وسحب يده من يدي ليخرج.

جذبته من يده والدموع تتجمع في عيني:

- ما تأذيش هلال!

- دا كان طلبك وأنتِ حرة قرارك.. كل واحد حر قراره يا تِبْر حتى هلال.

رحل وأغلق الباب وراءه.

جلست على الأريكة وأنا شاردة في مصير هلال هنا، مسحت على شعري بتوتر وأغلقت عيني محاولة عدم التفكير.

***

في المساء، خرج هلال من غرفته، كنت وقتها في الحديقة أقرأ كتابًا تحت ضوء مصباح، شعرت بهلال من ورائي فابتسمت ابتسامة صغيرة وطلبت منه المجيء والجلوس معي، جاء وجلس بجانبي وهو شارد، على الأحرى لا يزال يفكر فيما رآه، أغلقت الكتاب وقررت أن أتحدث معه لتخفيف توتره.

- احكيلي شوفت إيه؟

نظر هلال إليّ وبدأ يقص كل ما رآه ويصف شكل الشخصيات والمكان وكل شيء، كان مثل الطفل وهو منبهر وخائف في الوقت نفسه من شيء لأول مرة يراه، استمعت له بصبر وهو يحكي وعندما انتهى سألته:

- اشمعنا الفراعنة اللي شوفتهم.

- معرفش أنا عموما مهتم بالتاريخ لكن ليه الحكاية دي وازاي عقلي قدر ينسج اديرا وماضيها واوهانا وكل الناس دي؟

- طب اهدا.. يمكن تعرف الأيام الجاية.

تنهد بهدوء ورفع رأسه ونظر إلى السماء التي كانت مزينة بالنجوم وسألني وهو لا يزال يشاهد النجوم:

- هو اللي حصل قبل ما أنام كان حقيقي؟

نظرت إليه بطرف عيني ورفعت رأسي أنا الأخرى ونظرت إلى السماء وأنا اشاهد النجوم:

- يمكن.

- انا ما بحبش الاحتمالات لو حصل قولي.

- ولو حصل رد فعلك هيكون إيه؟

- عملتِ كدا ليه؟!

- تفتكر إحنا عيشنا كام مرة قبل الحياة دي؟

أخفض هلال رأسه ونظر الي وهو يحاول فهم ما أقصده، أخفضت رأسي أنا أيضًا ونظرت إليه:

- تفتكر كام حياة كنا أنا وانت فيها سوا؟

- أنا مش عايز أكون خاين.. أنا أذيت فدوى كتير كفاية كدا عليها.

نظرت إلى عيناه وأنا أحاول البحث عن رد لكن كل الكلمات تلاشت من عقلي، هززت رأسي في هدوء وهممت بالوقوف وقبل

رحيلي نظرت إليه:

- أيا كان نظرتك ليا حاول تنسى الكلام ده.

هز رأسه موافقًا وبقيت أرمقه وأنا أحاول البحث عن تعبير مناسب أقوله له، نظرت في الأرض وأغلقت عيني.

- حاول تنساه.. لأني مش مستعدة أخسرك دلوقتي.

فتحت عيني ونظرت إليه وأنا أحاول الابتسام:

- ويلا علشان نتعشى مع سلام.

ابتسم وأخبرني أنه سيأتي ورائي.

أخذت الكتاب ومشيت ثم رفعت رأسي، وجدت سلام يراقبني من إحدى النوافذ، نظر إلى هلال ثم أغلق الستائر، نظرت إلى هلال في خوف ودخلت إلى البيت سريعًا.

***

على العشاء كنت في أشد حالات التوتر وأنظر إلى هلال بين اللحظة والأخرى خاصة أن "سلام" هو من طبخ العشاء بنفسه، لمحت "سلام" الذي كان يأكل ببطء ويكاد يكون أنه يلعب بالطعام أكثر من أنه يأكل، ابتلعت غصتي وحاولت كسر حاجز الصمت:

- قُل لي يا هلال متحمس لليوم التاني؟

انتبه لي هلال وضحك، فترك سلام الملعقة ونظر إليه وهو يقول:

- الضحك دا معناه إيه؟

- هو أنت ليه اشتغلت مع تبر يا سلام؟

تعجبتُ من سؤال هلال وراقبت رد فعل سلام الذي لم يعطِ أي تعبير.

مسح سلام يده في منديل الطاولة واقترب بجسده من المائدة، لاحظت ابتسامة هلال الجانبية وهو يمسك السكين ويرسم على الطاولة:

- لو كنت بتتعامل مع طفل ما كنش ركز معاك، لكن الحقيقة أنا مش طفل ولا ساذج يا سلام.

- مش فاهم مغزى جملتك.

تنحنحت ونظرت إلى سلام:

- هلال تقريبا لسَّا متأثر باللي شافه النهار ده؟

- أنا مش متأثر بشيء.. سلام بيحبك وأنت يا غبية يا بتضحكي على نفسك يا تِبْر.. مش كل شيء بيمشي على هواكِ.. يا فنانة.

أرجع كرسيه إلى الخلف بعنف ووقف وهو ينظر إلي نظرة لم أفهمها ثم صعد إلى غرفته.

أرجعت ظهري إلى الخلف وأنا أتنفس بعمق محاولة تهدئة نفسي ثم توجهت بنظري إلى سلام الذي كان يرمقني بابتسامة جانبية:

- ليه حسسته إنك بتحبني؟!

- علشان أنت ما ينفعش تكوني ليه.

- أنت ما لكش حكم عليا!

وقف سلام واقترب مني وهو يتحسس رقبتي بأصابعه ثم قبض عليها بقوة، جززت على أسناني محاولة عدم خروج أي صوت مني ونظرت إلى سلام وأنا أدمع.

- حياتك دي كلها ملكي يا تِبْر.. مش أنت اللي اختارتِ ده؟

أغمضت عيني وأنا أبكي بينما ترك سلام رقبتي وذهب، بقيت مغمضة عيني حتى شعرت إنه لم يعد في الغرفة، فتحت عيني وأنا أنظر حولي وأجهش بالبكاء، رفعت رأسي وأنا أنظر إلى الفراغ وأبكي.

***

- اليوم الثاني -

توقعت أني عندما أستيقظ سأجد "هلال" رحل عن هنا، لكنني عندما فتحت الستائر ونظرت إلى الحديقة وجدته جالسًا في نفس المكان الذي كنا نجلس فيه بالأمس.

ارتديت ملابسي سريعًا ونزلت له، اقتربت من مكان جلوسه وأنا كالطفلة المخطئة ولا تعلم إن كان والداها سيسامحانها أم لا، تنهد هلال ونظر إلي:

- يضايقك لو عملت قهوة بلبن من عندكم؟

ابتسمت ابتسامة خفيفة:

- هو المج بتاعي بس.

أخذ رشفة من المشروب وهو يتأمل الزهور المزروعة:

- هبقى أغسلهولك

- هلال أنا آسفة.. قولّي أنت عايز تفهم إيه وأنا هشرحلك كل حاجة.

- أنت معقدة أكتر من إني أفهمك يا تبر.. ممكن نبدأ اليوم التاني؟

هززت رأسي موافقة ورافقته إلى الغرفة البيضاء، جلس في نفس وضعية الأمس وأغمض عينه.

بينما أنا اخترت سماع أغنية مفترق الطرق لماجدة الرومي.

"ساعات أقوم الصبح قلبي حزين

أطل بره الباب. ياخدني الحنين

اللي اشتريته انباع. واللي لقيته ضاع

واللي قابلته راح. وفات الأنين".

سمعت ضحكة هلال فالتفت إليه:

- ذوقك مريب.

جلست على الكرسي واقتربت منه:

- دي حاجة وحشة؟

- لايقة على شخص مشتت زيك.

مسحت على شعره واقتربت وأنا أهمس:

- الخطيئة هي سبب طرد الشيطان من رحمة ربه وسبب نزول آدم على الأرض وعلى مدار آلاف القرون يخطئ الإنسان خطأ واثنين وعشرًا وألفًا ورغم ذلك لا يزال يأمل في رحمة ربه.

أغمضت عيني ووضعت يدي على قلبه وأنا أتنهد.

***

البوابة الثانية

العصر العباسي

_٧_

" هلال "

فتحتُ عيني ونظرت حولي، كنت في مكانٍ آخر غير العصر الذي رأيته بالأمس، الأعمدة المرسوم عليها كان مكانها مزخرفًا أعتقد أنها ترجع إلى عصر الإسلام، لكن أنا في جناح شخص ما يمكن أن يكون ملكًا أو وزيرًا.

توجهتُ إلى المرآة لأتأكد من عدم ظهوري، ونظرتُ حولي محاولًا البحث عن تفصيلة تبين أين أنا، حتى فُتح الباب ودخلتْ منه شابة جميلة كانت تغطي شعرها بوشاح أزرق يعكس جمال عينيها السوْداوين.

دخلتْ خلفها فتاة أخرى كانت ترتدي ملابس أقل كُلفة من الفتاة الأولى أعتقد أنها وصيفتها أو شيء مثل ذلك.

خلعت الفتاة الوشاح وكشفت عن شعرها الأسود الطويل ونظرتْ حولها في إعجاب فابتسمت الفتاة الأخرى.

- لم تكن تكذب الفتيات في المملكة عندما وصفن جمال قصور هارون الرشيد.

جلست صاحبة الشعر الأسود وتنهدت:

- لا أستطيع التخيل يا سجاج أن هارون الرشيد سيصبح والد زوجي بعد بضعة أيام.

جلست سجاج بجانب قدم سيدتها وابتسمت:

- وهل هذا يقلق سيدتي جويرية، أنت ستتزوجين "محمد بن هارون الرشيد" ذا الخلق الحسن وولي عهد الخلافة.

- لكنه زواج تقليدي لأجل مصالح بين أبي والخليفة العباسي.

- لعله خير يا مولاتي.

ابتسمت جويرية ونظرت حولها ثم نظرت مرة أخرى إلى سجاج:

- أتتذكرين كبير الحراس الذي جاء مع الخليفة إلى قصرنا؟

- أعتقد.. هل ذلك الشاب يدعى "كريم" أو ما شابه؟

- نعم نعم هو كريم.

- حسنا.. ما به؟

- سألقاه الليلة.

وسعت عين سجاج وأمسكت يد جويرية:

- مولاتي لا!

- وماذا في ذلك؟

- أنتِ في حكم خطيبة الأمير محمد.

سحبت جويرية يدها وخرجت إلى الشرفة، خرجت وراءها سجاج:

- أنا لا أقصد الحكم عليك، لكن أخاف عليك من الخطأ، أنت تعنين لي شيئًا أكبر من أنك ملكة يميني.

نظرت إليها جويرية وابتسمت وربتت على يدها.

***

دخلت سجاج الحرملك ونظرت حولها وهي تتأمل المكان والجواري حتى لفتَ نظرها فتاة ترمقها بابتسامة، بادلتها سجاج النظرة بتعجب، فتحركت الفتاة من مكانها وجلست بجانب سجاج:

- إذن.. أنتِ وصيفة الأميرة جويرية؟ لولا ثيابك العادية لحسبتك الأميرة نفسها.

عقدت سجاج حاجبيها وصمتت في محاولة لتجاهل تلك الفتاة.

- أقصد أنك حسناء أكثر من اللازم لتكوني مجرد وصيفة.

- ذلك القدر يا ...

- ناديني طروب.

- يا طروب أنا لم أشتكِ إليكِ ولم أطلب منكِ رأيكِ في شكلي.

همت سجاج بالوقوف وسحبت وشاحها لترحل فأوقفتها طروب بكلماتها:

- ستحتاجين رأيي يومًا أيتها الغريبة.

- أدعى سجاج ولن أحتاج لرأيك، أفهمتِ؟

نظرت إليها سجاج بطرف عينها ثم خرجت ووضعت الوشاح على رأسها وغطت به وجهها وهي تنظر حولها؛ حتى لا يراها أحد الحراس وهي تتسلل إلى الحديقة، تأكدت من خلو المكان من الحراس وهرولت سريعًا إلى الحديقة وهي تنظر على القصر لتتأكد أن ليس هناك أحد يلاحقها إلى أن اصطدمت بشخص ما.

التفتت له سجاج ووسعت عيناها بخوف وهي تقول بصوت خفيض: "أنت"، نظر إليها متعجبًا بينما كانت سجاج تدرك أنها أمام كبير الحرس السيد كريم، ابتلعت سجاج غصتها ثم ابتعدت عنه وهي تعتذر، ضم كريم ذراعيه إلى صدره وهو يتساءل عن هويتها، نظرت سجاج حولها في توتر ثم أزاحت الوشاح من على وجهها وطأطأت رأسها وهي تقول بنبرة متوترة:

- سجاج يا سيدي.. وصيفة الأميرة جويرية.

- لما لم أرَكِ من قبل؟

- عند ظهور الأميرة تصبح باقي الفتيات كالظلال.

- وأنت أجمل من مجرد ظل.

رفعت سجاج رأسها ونظرت إلى كريم، فكرت في إخباره بأنها تعرف هويته لكنها صمتت، ابتسم كريم.

- وما الذي جعلك تخرجين من الحرملك؟

ابتسمت سجاج وقالت بنبرة خجولة:

- أردت رؤية القصر.

- إذن أتسمحين لي بأخذك في جولة قصيرة؟ أعدك أن لا يراكِ أحد إطلاقا وسأرجعك إلى الحرملك أيضًا.

نظرت سجاج على شُرف القصر للتأكد بأن جويرية لا تقف في أحدها وفكرت في أمرها مع كريم، كرر كريم السؤال عليها فابتسمت له سجاج وغطت وجهها مرة أخرى وهي تهز رأسها بالموافقة.

***

في المساء، كانت سجاج تفكر في مقابلتها مع كريم شعرت بأنه شخص وسيم وطيب الخلق وأحبت الحديث معه، عندما سألته عن وظيفته قال: إنه راعي الخيل، لم تدرك لما كذب عليها لكنها افترضت أنه قال ذلك محاولا إذابة الجليد بينهما.

أفاقت سجاج من شرودها ونظرت إلى جويرية التي كانت تضع العطر على رقبتها لمقابلة كريم، في البداية لم تكن تريدها تقابل كريمًا خوفًا عليها، لكن عندما قابلته هي تحول رفضها لمقابلة جويرية له من خوفٍ إلى إحساس بأنها تسلب منها شيئًا تريده فهي

في النهاية ستتزوج الأمير لمَ تجعل قلب كريم يتعلق بها؟!

اقتربت سجاج من جويرية ووقفت خلفها، نظرت جويرية إلى انعكاس سجاج على المرآة: تريدين منعي، أليس كذلك؟

- من الخوف عليكِ.

التفتت إليها جويرية وسألتها بنبرة غضب:

- الخوف، الخوف، أصبحتِ مثل الجدة بكلامك هذا وأنا لم أعتد عليك سوى أنك جريئة.

- أنتِ في قصر هارون الرشيد.

وقفت جويرية وأخذت الوشاح وهي تغطي به وجهها وهي تقول: وماذا في ذلك؟ حاكم مثل أي حاكم.

أخرجت سجاج نفسها بملل وغطت وجهها هي الأخرى وخرجت مع جويرية متسللتين إلى الحديقة في الظلام الحالك إلى حيث المكان الذي اتفق كريم على مقابلة جويرية فيه.

كان كريم ينتظرها فابتعدت سجاج وأخبرت جويرية أنها لا تستطيع الاقتراب أكثر من ذلك، نظرت جويرية إليها بتململ واقتربت من كريم بلهفة. ألقت سجاج نظرة عليهما فوجدت جويرية تمسك بيد كريم وتحكي له عن فرط سعادتها بلقائه، جزت سجاج على أسنانها بغضب وضربت الأرض بقدمها.

***

مرت بضعة أيام وجويرية تقابل "كريم" كل ليلة بينما سجاج تحاول منعها، كانت حزينة حقًّا أنها ترى كريمًا كل ليلة وهو يقابل جويرية ويتحدث معها بدلًا منها هي، وفكرت في رؤية كريم ومصارحته لكنها لم تستطع.

وهي جالسة في الحرملك كانت تشاهد الفتيات وهن يتدربن على الرقص لأجل الحفلة التي ستقام بمناسبة وصول الأمير محمد إلى دمشق وإعلان خطبته على جويرية، جاءت طروب وجلست بجانبها وسألتها وهي تنظر إلى الفتيات:

- أتستطيعين الرقص؟

نظرت إليها سجاج بطرف عينيها ونظرت إلى الفتيات مرة أخرى:

- لما لا تطيقين الحديث معي؟

- لا أحب التطفل.

- لكن أنا لا أتطفل أنا فقط حزينة على حالكِ.

ضحكت سجاج بسخرية من جملتها فرفعت طروب حاجبها في غضب وقالت وهي تنظر إلى أصابعها بلامبالاة:

- جئتِ من بلد إلى بلد آخر لتخدمي فتاة مغرورة وأعجبت بشاب والأميرة الجميلة تواعده، شيء لا يحزن على الإطلاق، أليس كذلك؟

نظرت إليها سجاج وأمسكت يدها بغضب وسألتها:

- كيف علمتِ؟

نظرت إليها طروب بابتسامة وحاولت سحب يدها فضغطت سجاج على يدها بقوة وكررت سؤالها، سحبت طروب يدها بقوة وأخبرتها بلا مبالاة وهي تنظر إلى معصمها الذي تغير لونه إلى الأحمر من الضغط عليه:

- بعض الأمور لا تُستر في الحرملك.

- كم شخصًا يعرف؟

- تبدين حقًّا خائفة.

- أخبريني!

- أنا فقط ولا تسألي كيف علمت.. اسأليني كيف ستحلين كل هذا؟

أسندت سجاج ظهرها إلى الحائط وهي غارقة في أفكارها حتى سمعت الفتيات يعلنّ عن وصول الأمير محمد إلى القصر، نظرت إلى طروب وهرولت إلى غرفة جويرية.

***

في غرفة الضيوف كانت جويرية جالسة أمام هارون الرشيد وابنه محمد وأبيها وهم يتحدثون عن أحوال البلاد، وسجاج تقف في نهاية الغرفة تستمع لحديثهم وترفع رأسها بين الحين والآخر إلى جويرية، حتى ابتسم محمد وطلب من أبيه تأجيل الكلام عن السياسة وأن يعطيه فرصة التعارف على جويرية، ابتسم هارون الرشيد وأمر الحراس والجواري بالخروج، رفعت سجاج رأسها إلى جويرية فابتسمت جويرية وأشارت إليها بالخروج.

خرجت سجاج من الغرفة ونظرت إلى الطريق الذي يأخذها إلى الحرملك ثم نظرت إلى الطريق الآخر الذي يقودها إلى خارج القصر، تنهدت ومشت بضع خطوات في اتجاه الحرملك لكنها وقفت ثم استدارت وقررت الخروج.

توجهت إلى الإسطبل لمقابلة كريم أخبرها أنه دائمًا يكون هنا وسط الأحصنة، رفعت سجاج طرف الفستان حتى لا يتسخ من القش وهي تنادي على كريم، سحبها كريم من يدها إلى أحد جوانب الإسطبل فصرخت سجاج بصوت خفيف من المفاجأة:

- كيف جئتِ إلى هنا؟ هل رآك أحد؟

- لا تقلق، جئت من طريق سري كنت أخبرتني به من قبل.

تنهد كريم براحة:

- الحمد لله.. لمَ لمْ أرَكِ الأيام الماضية؟ كنت أفتقدك ألم تفتقديني؟

- كيف لي أن أفتقدك وأنا أراك كل ليلة مع جورية.

ابتلع كريم غصته ونظر في الأرض فضحكت سجاج بسخرية وأردفت:

- أخبرتك أنه عند ظهور الأميرة تصبح باقي الفتيات كالظلال.

- سجاج، إن كنتِ رأيتِني فعلًا ستعلمين أني لا أبادلها أي مشاعر ولا حتى أقول لها شيئًا يدل على ذلك.

- لكنها تبادلك وليل نهار تفكر بك وتتخيلك معها.. كيف يغمض لك جفن وأنت تقابل كل ليلة خطيبة ابن الخليفة الذي وثق فيك وجعلك كبير الحراس رغم صغر سنك.. أعتقد أنك لم تنضج كفاية لتصبح أي شخص جدير بأي شيء!

قالت سجاج كلماتها الأخيرة بنبرة معاتبة وكانت بدأت تتجمع في عينها الدموع، أمسك كريم يدها وقبّلها وهو يعتذر، سحبت سجاج يدها بغضب ومسحت وجهها وهمت بالرحيل فلاحقها كريم: سجاج أرجوك لا تذهبي.. أقسم لك أنا لا أبادلها أي مشاعر.. كيف أفكر بها وأنا كل تفكيري بكِ.

نظرت سجاج إليه وارتسم على وجهها شبح ابتسامة فأكمل كريم وهو ممسك بيد سجاج:

- أعلم أن كلامي أشبه بالجنون وأننا تقابلنا مرة واحدة لكن أنا أريد التعارف عليك أكثر وأريد أن أكون معك.. يمكنني فعل أي شيء.. يمكنني طلب يدك من والد جويرية.. أي شيء صدقيني.

ابتسمت سجاج ابتسامة واسعة وأحاطت كتفيّ كريم بذراعيها وهي تحتضنه ثم ابتعدت عنه سريعًا بخجل. ابتسم كريم:

- أعدك أني سأنهي الليلة كل شيء وسنبدأ أنا وأنت بداية جديدة لحياتنا.

***

في المساء.. كانت سجاج متشوقة لمقابلة جويرية، وكريم أكثر من جويرية نفسها، وتسللت الفتاتان كالعادة إلى المكان الذي يتقابلان فيه مع كريم دائمًا.

ابتسمت جويرية عند رؤية كريم وأخبرته أن والدها تحدث مع الخليفة وابنه حول الزواج وأنها ستتزوج منه قريبًا.

اختلست سجاج النظر وهي تترقب رد كريم لكن جويرية سبقته بدموعها وهي تقول له إنها تريده هو ولا تريد ذلك الزواج.

تنهد كريم وقال بنبرة معتذرة إنه لا يستطيع أن يكمل معها وأنه لا يريدها، فأجهشت جويرية بالبكاء واحتضنت "كريم" بشدة وهي ترجوه بأن لا يتركها. رفع كريم رأسه إلى سجاج التي كانت تشاهد كل شيء وابتعد عنها ورحل، رجعت سجاج إلى مكانها حتى جاءت جويرية وهي تبكي بشدة وارتمت بين ذراعي سجاج، نظرت سجاج إليها وهي بين ذراعيها وهي مثل البركان الموشك على الانفجار

***

في الحرملك كانت سجاج تصنع عقدًا من الخرز، كانت جدتها هي من علمتها تلك الهواية قبل أن يُقتل جميع أفراد عائلتها في أحد الحروب الأهلية.

أصلها مصري وبعد موت عائلتها بقيت مشردة حتى رآها أحد تجار الرقيق فأخذها وابتاعها لجويرية ابنة الوالي على مصر، ولثقة جويرية فيها قررت تقريبها لها وأصبحت تعتبرها مثل أختها، لكن بالنسبة لسجاج لم تكن ترى تلك أخوة؛ كانت تراها مذلة وهي تتحمل الإهانة وخدمة تلك المتعجرفة المدللة والآن تريد أخذ ما هو ليس من حقها.

أفاقت سجاج من شرودها وهي تقطع العقد الخرزي من شدة غضبها، التفتت إليها الفتيات ومن بينهن طروب التي شرعت في لمِّ حبات الخرز المبعثرة ووضعتها في يد سجاج وهي تهمس:

- لا تبدين في حالة جيدة.

نظرت إليها سجاج بحزن وقبضت يدها على الخرز فسحبتها طروب من يدها لتأتي معها، وأخبرتها سجاج بقصتها.

***

دخلت سجاج غرفة جويرية كأنها مغيبة، جلست أمام سرير جويرية التي كانت غارقة في نومها وأغمضت عينها وهي تتذكر كلام طروب.

"بعض الأشياء لا تعوض خاصة الحب فإن وجدتِ الحب لا ينفع الاستغناء عنه بأي شيء فما بالك بك تتركين السعادة لأجل شخص لا يقدر أي شيء تفعلينه لأجله.. أين العدل في ذلك؟"

وقفت سجاج وذهبت إلى الصندوق الذي تحمل فيه أغراضها وأخذت تبحث بين الملابس حتى وجدت الخنجر الذي تحمله معها طوال الوقت وتوجهت إلى جويرية النائمة.

"إن كان اللين لا يفلح يا عزيزتي فعليك بالقوة.. إن تركتِ جويرية لما تريد سوف تخسرين كل شيء، كريم.. منصبك في قصر الوالي، ستعودين مرة أخرى مشردة خسرت كل شيء.. أتريدين ذلك يا سجاج؟"

فتحت سجاج الخنجر ورفعته وهي تنزل من عينها الدموع:

- قدرت ثقتك في وأحببتك مثل أختي.. تمنيت لكِ الخير وكنت أخاف عليك أكثر من روحي.. لكنني لا أتحمل يا مولاتي لا أتحمل احتقارك لي وإهانتك لي.. لم أتحمل أن تسلبي مني ما أريده.

فتحت جويرية عينيها بنعاس فصرخت عند رؤية سجاج بالخنجر:

- آسفة يا جويرية.

غرزت الخنجر في بطنها فسالت الدماء من جويرية وفي عينيها الدموع، بقيت ناظرة إلى سجاج حتى نزلت دمعة من عينها وأغمضت عينها، نظرت إليها سجاج بخوف ونادت عليها على أمل أن ترد جويرية، عقدت حاجبيها وهي تلمس دماء جويرية بأصابع مرتعشة، أخذت ترجع إلى الوراء من هول المنظر حتى وقعت على الأرض وضمت ركبتيها إلى صدرها وصرخت بشدة.

***

فتحت عيني وانتفضت من مكاني وأنا آخذ نفسي بصعوبة، همت تبر سريعًا وهي تجلب لي المياه وتشربها لي وأنا أرتعد خوفا، نظرتُ لتبر والدموع تنزل من عيني بشكل لا إرادي وضممت ركبتي إلى صدري، وتبر تمسح على شعري وتحاول أن تطمئنني، نظرت إلى وضعي وإلى تبر التي كانت تتحدث معي لكنني كنت أنظر إليها ولا أسمع شيئا كأني فقدت السمع، نظرت إلى نفسي مرة أخرى كان وضعي يشبه وضع سجاج قبل أن تصرخ وأفيق.

***

_٨_

" هلال "

جلبت لي مشروبًا ساخنًا لمحاولة تهدئتي عما رأيته في منامي، أمسكتُ الكوب بأصابعي العشرة وأنا أتمعن النظر فيه وفجأة تحول لونه الذهبي إلى اللون الأحمر كالدماء، انتفضت من مكاني فوقع الكوب على الأرض وكُسر، هرولت تبر إليّ وأمسكت يدي وهي خائفة ولا تتوقف عن أسئلتها للاطمئنان علي، ربت على يدها وأنا أهّم بالوقوف، وقفت تبر أمامي:

- هلال أنا قلقانة عليك.

- أنا مش فاهم.. إيه اللي رابط سجاج باديرا ب...

جلستُ مرة أخرى وأنا في حالة انهيار:

- أنا مش فاهم حاجة خالص.

- هتفهم أكيد، في وقت معين هتفهم.

- تبر.. هو أنتِ بتشوفي اللي أنا بشوفه؟

أبعدت تبر يدها عني وابتلعت غصتها:

- لا، ازاي يعني في حاجة اسمها كده؟

- تبر أرجوكِ لو مخبية عني حاجة قوليلي.

ابتسمت تبر:

- صدقني مفيش حاجة.

هززت رأسي وتركتها وذهبت إلى غرفتي وأنا أحاول النوم، تقلبت في كل الأوضاع تقريبًا محاولا النوم بأي شكل لكن قصة اديرا وسجاج لا يخرجان من رأسي، اعتدلت في جلستي وفتحت أدراج المكتب وخزانة الملابس؛ مفتشًا عن ورقة وقلم حتى وجدت قلمًا ودفترًا قديمًا أخرجته وجلست وأنا أكتب ما رأيته

اديرا وسجاج

السرقة والقتل

اوهانا وطروب

الحرية والحب

ما الذي يربط بينهما.. الاثنان وقعا في الخطأ.. الاثنان أرادا شيئًا ما.. الاثنان وجدا من يشجعهما على خطيئتهما، لكنهما ليس لهما علاقة ببعضهما، تلك بعصر وتلك بعصر، ما علاقة الاثنين بي؟! لمَ أراهم!

أحطت رأسي بيدي في تعب وأنا أحاول فهم الرابط بينهما ووضعت رأسي على المكتب حتى غفلت من التعب.

***

قرب غروب الشمس، سمعت صوت موسيقى قادمًا من الدور السفلي، نزلت، كانت تبر ترقص على fly me to the moon لفرانك سينترا، ضممت ذراعي إلى صدري وأنا أشاهدها وهي ترقص حتى رأتني فجذبتني من يدي لأرقص معها، قاومتها في البداية فأنا أعرف أنني لست براقص جيد لكن مع إصرارها استلمت ليدها، وضعت يدي على خصرها وأمسكت يدها بالأخرى وهو تدندن مع الأغنية:

"in other words hold my hand.. in other words baby kiss me"

ابتسمت لتبر فاحتضنتني بقوة، أفلت يدي من على خصرها وأحسست بتمسكها الشديد، ترددت كثيرًا قبل أن أبادلها العناق وأبتسم.

تكلمت تبر وهي بين أحضاني:

- عايزاك تعرف إنك نقطة النور اللي في حياتي اللي مش عايزة أخسرها أبدًا.

ابتعدت عني ونظرت إلي بعيون لامعة: ما تضايقش من أي حاجة حصلت يا هلال، أنت أكتر حد أنا محتاجاه في الدنيا.

نظرت إليها فرأيت فدوى، ابتلعت غصتي وأغمضت عيني وفتحتها أكثر من مرة، كأن عقلي يعاقبني على انجرافي وراء مشاعري.. الغبية بالمناسبة.

اختفت الابتسامة من على وجهي وابتعدت عنها وأنا أطفئ الأغنية، نظرت إليّ وعقدت حاجبيها، كان كل تفكيري في تلك اللحظة هي فدوى حين احتضنت تبر شعرت بأني أحتضن فدوى.

القرب من تبر خيانة والابتعاد عنها أشبه بالضياع، هى..

هي الجمال والسر

هي التي تثير فضولي لأعلم من هي وأكتشف لماذا أنا هنا

هي من فتحت أبوابًا لا أحد يفهم لماذا فُتحت تلك الأبواب تحديدًا، ولا حتى أنا أفهم.

جلست على كرسي وأنا في حالة شرود تام فجاءت تبر وجلست بجانبي:

- "تعرفي إن عمر حد ما سألني أنا ليه أدمنت؟ أستاذ جامعي متزوج وأب إيه اللي يخليه يدمن؟ أنا ولا بني آدم فاضي ولا مهمل.. ليه أدمن؟ أقولك ليه؟

علشان أنا بني آدم مشتت.. مفهمش السعادة، مفهمش مغزى حياته.. عاش عمره ينجز ويحقق اللي الناس تفتخر بيه وتحبه وهو حتى مقدرش يفهم نفسه..

على فكرة أنا بحب فدوى من أول يوم شوفتها وأنا حبتها وحبيت إيلاف، حبيتها أكتر من أي شيء في الدنيا لكن مع كل الحب ده فقدت نفسي.. مقدرتش أفهم أنا ليه موجود، أنا إيه في كل ده.. التفكير صعب ومرهق.. المخدرات ما كانتش إلا مجرد حالة هيام

جميلة.. أجمل ساعات عمري هي اللي كانت بتعدي وأنا برا حدود الدنيا.. علشان كدا وافقت أدخل معاكي في تجربتك.. علشان كنتِ مبهمة.. علشان حسيت إنك مخدري اللي هيخرجني برا الدنيا مرة تانية.. لكن الرجوع لسّا مؤذي يا تبر.. التفكير مؤذي، قوي، الأسئلة اللي في عقلي متعبة.. أنا تعبت من التدوير والبحث على حاجة مش عارف أخرتها يا تبر.

نزلتْ من عيني الدموع فمسحتها تبر بيدها:

- أنا موجودة علشانك.. علشان الرابط اللي بينا.. أنا مش عايزاك توصل للي أنا وصلت له.

مسحت وجهي وقبلت رأس تبر:

- محدش هيوصل للي أنا وصلت له.. اطمني أنا شخص مختل نفسيا بيقول العلاج لكل البشر لكن متعالجش.

***

سلطان

- اليوم الثالث -

استيقظت بعد شروق الشمس ودخلت الغرفة البيضاء وأشعلت الجرامافون على أغنية لسيد النقشبندي.

قلبي يُحَدّثني بأَنّكَ مُتْلِفِي روحي فِداكَ عرَفْتَ أمَ لم تَعْرِفِ
لم أَقْضِ حَقّ هَواكَ إن كُنتُ الذي لم أقضِ فيهِ أسى ومِثليَ مَنْ يَفي
ما لي سِوَى روحي وباذِلُ نفسِهِ في حُبّ مَن يَهْواهُ ليسَ بِمُسرِف

ذهبت إلى المكتبة وجلبت كتبًا عن عهد هارون الرشيد وعهد رمسيس الثالث، رجعت مرة أخرى إلى الغرفة وأنا أقرأ أحاول البحث عن أي رابط بين القصص والأحداث التاريخية، حتى فُتح الباب ودخلت منه تبر.

- أنت هنا من إمتى.

نظرت إلى السماء، كانت الشمس، اقتربت من المنتصف:

- أعتقد بقالي كتير.

- نبدأ؟

هززت رأسي بالموافقة وأرحت نفسي على الأريكة وأنا أنظر إلى السقف وأقفل عيني ببطء.

جلست تبر بجانبي وتوجهتُ بنظري إلى تبر وأنا مغمض العينين:

- تعرفي إنك من ساعة ما قابلتك وأنتِ بتقول لي فيه بيني وبينك رابط بس عمرك ما قلتِ لي عليه؟

- قلت لك كل حاجة هتتعرف مع الوقت.

- فاضل يومين.

مسحت على شعري وهمست في أذني:

- مش قليلين.. فاكر حكاية برصيصا.. لو وصلت لسبب ذنوب برصيصا هتوصل للرابط.. كل شيء مرتبط ببعضه يا هلال.

تنهدت وأنا أضع أعصابي في حالة انسيابية حتى غبت عن الوعي.

***

البوابة الثالثة

العصر الملكي

_٩_

" هلال "

حالة الإفاقة في مكان مختلف أصبحت تُخيفني، الغوص في أفكاري أصبح عذابًا أكثر من السابق، واعتقادي أنني سأشفى لم يأتِ بنتيجة، أنا أزداد سقمًا لا أكثر، انتبهت لما يحدث حولي كانت الموسيقى عالية، أعتقد أني في كازينو أو شيء مثل ذلك، النساء والرجال في فساتين وبذلات أنيقة، على المسرح رجل قصير القامة يغني بفن ما يدعى " المونولوج "، أيقنت أنني في مصر الملكية على الأحرى خاصة عندما ذكر " المونولوجيست" الملك فاروق.

نظرت إلى الطاولة التي كانت أمامي مباشرة كان يجلس عليها رجل في بذلة سوداء أنيقة ينظر في ساعة جيبه، وجسده كله متجه إلى الباب وهو جالس أدركت أنه ينتظر شخصًا ما، على الأحرى هي امرأة، أدخل الساعة في جيبه ثم رفع رأسه ووقف وهو ينسق شاربه بأصابعه، فنظرت إلى السيدة التي دخلت لتوها، كانت جميلة في شعرها البني الغامق متوسط الطول، وفستانها الأخضر الذي يشبه فستان الأميرات، ورائحة العطر الفرنسي تفوح منها، أمسك الرجل يدها وقبّلها بلطف ثم سحب لها الكرسي لتجلس:

- متأسفة يا أستاذ يوسف على تأخري.

- مفتكرش إنه له لزوم التكاليف دي دلوقتي يا ناريمان إحنا معاد زفافنا قرب.

ابتسمت ناريمان بخجل:

- أنا أحب أكون محافظة على التكاليف لآخر وقت.

- على راحتك تحبي تطلبي إيه؟

نادى يوسف على النادل وأملى عليه طلبه وطلب ناريمان، وتكلما في عدة أمور منها زواجهما وتكاليفه وأين سيقام، حتى بدأ العرض الراقص فتوقفا عن الكلام لتشاهده ناريمان التي أخبرته أنها تحب الرقص ومشاهدته كثيرًا.

التفت يوسف هو الآخر ليشاهد العرض الراقص من النوع الغربي التي كانت بطلته فتاة بشعر أحمر مجعد حسب تحمس الجماهير لها فهمت أنها معروفة بخفتها وأنها نجمة ذلك المكان، كان الجميع يحيونها وينادونها ب "ديبورا"، نزلت ديبورا من على المسرح وأخذت ترقص بخفة وسط الطاولات حتى وصلت إلى طاولة يوسف وناريمان وهي تقوم بحركاتها الرشيقة وبحركة خفيفة أخذت المنديل الذي كان في جيب بذلة يوسف وأسرعت بالذهاب من أمامه وهي تكمل رقصها.

نظر يوسف إلى ناريمان بنظرة متوترة.

ابتسمت ناريمان ابتسامة صغيرة وتابعت مشاهدة الرقص.

عادت ديبورا إلى المسرح وأنهت عرضها وسط تصفيق الجماهير، التفتت ناريمان إلى يوسف وقالت بنبرة هادئة:

- رشيقة قوي البنت دي وخفيفة.

- أنا أول مرة أشوفها.

نظرت إليه ناريمان بشك وفهمت أنه يقصد موقف المنديل.

- أها وأنا كمان أول مرة أشوفها.

هز يوسف رأسه بابتسامة ونظر إلى المسرح مرة أخرى.

***

في الصباح، دخل يوسف إلى مكتب المحاماة الخاص به، يوسف من المحاميين المشهورين في القاهرة، من يتعامل معه كبار أعيان مصر الذي كان منهم "علي بك صادق" أحد أعيان مصر وجد ناريمان خطيبته.

دخل إلى مكتبه الخاص بعدما حَيّا السكرتير والساعي وطلب منه قهوته الصباحية وجلس على مكتبه فرأى الكارت الخاص بمحل المجوهرات الذي رشحته ناريمان له لشراء خاتم الزواج منه، كان المحل من أكبر محلات المجوهرات الموجودة ولا يتعامل معه إلا أصحاب الطبقة الراقية التي منهم زوجته المستقبلية ناريمان، ابتسم يوسف ووضع الكارت في جيبه ثم أخرج أوراق العمل.

بعد وقتٍ رفع يوسف رأسه لحظة دخول الساعي مكتبه مقدمًا له القهوة وبجانبها منديل كان في جيب بذلة يوسف ليلة أمس، رفع يوسف رأسه ونظر إلى الساعي متسائلًا عن من أعطى له ذلك المنديل.

- ست جميلة منتظرة إذن الدخول منك.

- دخلها فورا لو سمحت.

هز الساعي رأسه بالموافقة وخرج ثم دخلت ديبورا في فستان أسود فوق الركبة وإكسسوار بسيط فوق رأسها باللون الأسود الذي يبرز لون شعرها الأحمر، وقف يوسف وحياها فبادلته ديبورا التحية وجلست واضعة رجلها فوق الرجل الأخرى.

نادى يوسف الساعي لتخبره ديبورا بما تشرب وخرج الساعي وأغلق الباب وراءه ويوسف يتأمل هيئة ديبورا.

ابتسمت ديبورا وقطعت شروده متسائلة:

- تسمح لي أدخن؟

- أكيد اتفضلي.

أخرجت ديبورا علبة السجائر وأشعلت السيجارة وهي تنظر على نفسها ثم نظرت إلى يوسف:

- هو شكلي فيه حاجة غريبة عليك أو مضايقاك؟

- لا إطلاقا العفو.. أنا بس يمكن مستغرب ليه الأسود بالنهار لعله ما يكون سبب محزن.

- لا لا إطلاقا أنا لبساه حبًّا في اللون عادي دا غير إني يومي مش زي باقي البشر نهار وليل أنا يومي عكس عكاس.

- أنت بتتكلمي عربي كويس رغم أن اسمك ما يقول إنك مصرية.

- أنا أرمنية مصرية، ماما أرمنية وبابا مصري ما أخدت شي من الأرمان غير الشكل والاسم لكن كل شي بيا مصري أصيل.

ابتسم يوسف وأزاح ورق العمل واقترب من المكتب بجسده:

- أقدر أعرف سبب الزيارة الكريمة؟

- أرجع لك منديلك.

- وليه منديلي اتاخد من الأول؟

دخل الساعي ومعه العصير لديبورا.

ضحكت ديبورا وهي تتنفس التبغ ثم التفتت إلى يوسف:

- لأنك لفت نظري أكتر من مرة، إحنا ما أول مرة نتقابل.. شوفتك أكتر من مرة في الكازينو يمكن أنت ما كنت بتلاحظني لأنك بتكون مع صحابك لكن أنا كنت بشوفك كل مرة بطلع على المسرح.

- وليه الليلة دي أخدت المنديل؟

- دا كان استعراض اممم أرجو ما أكون عملت مشاكل بينك وبين الآنسة.

- خطيبتي.

- مبارك!

أطفأت ديبورا التبغ في الطبق المقدم فيه العصير وهمت بالوقوف ثم اقتربت بجسدها من يوسف.

- لوقدرت تيجي النهاردة يا ريت تشرفني وتشرب قهوة معايا بعد العرض وأنا هبقى أديهم بلاغ بوجودك.

ابتلع يوسف غصته ونظر إلى ديبورا محاولًا إخفاء توتره أومأ رأسه بالإيجاب، أرجع ظهره على الكرسي، ابتسمت ديبورا ووضعت إصبع السبابة على شفتيها مرسلة قبلة في الهواء ليوسف، خرجت فتنهد يوسف بارتياح ومسح جبينه الذي بدأ بالتعرق ثم فتح المنديل وجد مكتوب عليه بكحل الأعين "هستناك"، طوى المنديل وأدخله في جيبه، كان يتمنى أن يسمع صوت ناريمان أو يراها لتصلح كل العبث الذي أحدثته ديبورا، تنفس بعمق وقرر العودة إلى عمله مرة أخرى.

***

في المساء، ذهب يوسف وناريمان ومعهما والدة يوسف ووالدا ناريمان إلى محل المجوهرات التي ذكرته ناريمان لاختيار خاتم الزواج، في أثناء اختيار ناريمان الخاتم سمع جميعهم ضوضاء بالخارج وصوتًا يقول: "جلالة الملك فاروق هنا".

تركت ناريمان الخاتم الذي كانت تقيسه وعقدت حاجبيها وهي تنظر إلى يوسف ووالديها، حتى دخل الملك فاروق في بذلة مرصعة وهيبته التي تسبقه دائمًا في أي مكان، استقبله صاحب المحل بالتحيات الحارة وجلس الملك فاروق، نظر والد ناريمان إليهم ثم ذهب إلى الملك فاروق يحييه خاصة أن والدها حسين بك صادق

وكيل وزارة المواصلات.

- أهلًا يا حسين.. يا ترى إيه سبب وجودك هنا.. إياك والزواج مرة أخرى.

قال فاروق جملته الأخيرة بمزاح فضحك حسين وقال له أنه أتى لتختار ناريمان ابنته خاتم زواجها.

نظر فاروق إلى ناريمان وهو يتأملها من الشعر للقدمين، نظرت إليه ناريمان متعجبة حتى احمرت وجنتاها ونظرت في الأرض، ابتسم فاروق وقال لصاحب المحل:

- ما تعطل السيدة الجميلة خليها تختار اللي بتريده ويا ريت يسمح لي حسين بأن يكون خاتم زواجها هدية مني.

وقبل أن يتحدث حسين أردف يوسف وهو يقول بطريقة مهذبة:

- الشرف لنا يا مولاي لكن أنا أفضل أن يكون خاتم الزواج مقدم مني أنا زوجها.

اتسعت عينا ناريمان وهي تنظر إلى يوسف وفضل فاروق السكوت مع نظرة إلى يوسف بهيبة توضح الفرق بينهما، وجه نظره لصاحب المحل:

- أريد رؤية أفضل مجموعة أسوار عندكم الأميرة فوزية عيد ميلادها قرب وأريد أن أشتري لها هدية تليق بيها.

- الله يطول بعمرها يا مولاي.

نظرت إليه ناريمان نظرة أخيرة قبل أن تلتفت للخواتم وتهمس ليوسف:

- ما كان ينفع تكلم الملك بهذا الأسلوب.

- خاتم زوجتي يكون مني أنا زوجها ما من حد تاني حتى لو كان الملك.

نظرت ناريمان بطرف عينيها على الملك وتنهدت وهي تقيس أحد الخواتم.

***

دخل يوسف بيته مع أمه وأجلسها وقبل صعوده إلى غرفته نادته والدته، عاد يوسف مرة أخرى إلى أمه ليرى ما تحتاجه:

- ما كنت ملاحظ نظرات ناريمان والملك لبعضهم؟

- نظرة عادية يا أمي.. ما بنكر أن نظرات الملك كانت غريبة لكن ناريمان جميلة ومتعلمة ومحترمة تلفت نظر أي رجل.

نظرت إليه والدته باستنكار وسألته مرة أخرى:

- الملك ومفهوم وناريمان شايف انه كان شي عادي؟

- أي حدا طبيعي تكون دي نظراته للملك.

- إلا صاحب العيون الشبعانة.

- ماما لو سمحتِ..

- تضمن منين أن الملك ما هيحدث حسين بك على ناريمان؟

- حتى لو.. ناريمان هتكون زوجتي وأرجوكِ كفاية.

قال جملته الأخيرة بغضب وصعد إلى غرفته ثم أغلق الباب وراءه بغضب، خلع ربطة العنق بغضب وهو يفكر في قول أمه، إن كان الملك أعزب مرة أخرى الآن بعد تطليق الملكة فريدة هذا لا يعطيه حق التحدث على ناريمان، خاصة وهي ستتزوج ووالدها...

والدها لا يمكنه أن يسمح للملك بشيء مثل ذلك وهي مع رجل آخر، تنهد يوسف وألقى جسده بتعب على السرير محاولًا التخلص من تلك الأفكار.

***

بعد يومين تقريبًا ذهب يوسف في زيارة لبيت ناريمان، استقبلته الخادمة وأخبرته أنها ستخبر ناريمان بمجيئه، جلس يوسف منتظرًا ناريمان وهو يتأمل البيت حتى وجد باقة من الورود على طاولة في نفس الغرفة التي كان يجلس فيها، وقف يوسف واقترب من باقة الورد وفتح الكارت المصحوب مع الباقة وقرأه وهو يستشيط غضبًا حتى دخلت ناريمان وهي تحييه بابتسامة، اقتربت من الورد وزادت ابتسامتها:

- الورد ده ليا؟

مد يوسف يده لها بالكارت وقال بلهجة جافة:

- اقرئي.

تعجبت ناريمان من لهجته وأخذت الكارت وقرأت بصوت مسموع:

- أهدي لك باقة الورود، إلى أجمل وردة قابلتها، الملك فاروق.

نظرت إليه ناريمان بتوتر وأردفت:

- أنا ما حدش بلغني بوجود الورد ده.

- الظاهر أن حسين بك هيكون مرتاح مع جلالة الملك.

تركها وخرج من الغرفة وناريمان وراءه تحاول ملاحقته، فتح باب البيت وخرج، نظرت ناريمان إلى الباب والدموع مجتمعة في عينها وذهبت إلى الغرفة وهي تلقي باقة الورود على الأرض.

***

في الكازينو كان يوسف في حالة غضبٍ شديدة جعلته يشرب أكثر من كأس خمر حتى ثمل. صعدت ديبورا على المسرح وهي ترقص بخفتها المعتادة ويوسف يشاهدها وهو يرتشف الخمر.

نزلت ديبورا من على المسرح وهي ترقص وسط الطاولات كما اعتادت لكنها نزلت قاصدة طاولة يوسف الذي مجرد أن وقفت أمامه اختفت ابتسامتها ونظرت إلى زجاجات الخمر وإليه.

ضحك يوسف بصوت عالٍ وهي تنظر إليه بتعجب وترقص حتى لا يشعر أحد بغرابة من تصرفها تمايلت بخفة ومالت بجانب أذنه وهي تهمس: إوعى تمشي لحد ما أجيلك.

نظرت إليه نظرة أخيرة وذهبت من أمامه وهي مستمرة في رقصها.

بعد مدة بدأ الزبائن يرحلون حتى فرغ المكان ولم يبقَ إلا يوسف الذي من الثمالة والانتظار غفا على الطاولة. خرجت ديبورا وذهبت إلى طاولته وهي تهزه ليستفيق، استيقظ يوسف وهو ينظر حوله بتعجب فنظر إلى ديبورا وضحك بتعب:

- أنا هسيب ناريمان.

- خطيبتك؟!

- أينعم.. الظاهر أن ماما كانت صح.

- يوسف أنا مش فاهمة حاجة قوم معايا.

وقفت ديبورا وأسندت يوسف ليقف ودخلت به إلى غرفتها الخاصة، أجلسته وهي تحاول فهم ما حدث ويوسف يتكلم بكلام أغلبه غير مفهوم، توقف عن الكلام ونظر إلى ديبورا التي كانت ترمقه بدهشة وارتمى بين ذراعيها. أبعدته ديبورا عنها ونظرت إليه بتعجب فوضع يوسف يده على وجنتها وابتسم، ابتسمت ديبورا هي الأخرى، أحاطت وجهه بيدها وقبلته...

***

أفقت وأنا أتنفس بصعوبة واعتدلت في جلستي، ابتعدت عني تبر محاولة فهم ما حدث.

- ناريمان.. الزوجة التانية لفاروق.. يوسف وديبورا..

وضعت تبر يدها على فمي لتسكتني، أنزلت يدها من على فمي وتمعنت النظر فيها وأنا أهمس:

- بحبك.

سحبت تبر يدها وهي تنظر إليّ غير مصدقة ما قُلته، هززت رأسي بالإيجاب وأنا أسحبها عليّ وألثم شفتيها.

شعور غريب يتسلل إلي لم أستطع تميزه، أحطتها بذراعي وكل ما يدور في ذهني وقتها هو أنني أحبها.

أنا أحب تبر!

***

_١٠_
" تبر"

فتحت عيني وأنا أنظر حولي، كنت على الأريكة مرتدية قميص هلال بينما قميصي ملقى على أرضية الغرفة، اعتدلت ووقفت لأخذ قميصي وأنا أتذكر ما حدث منذ بضع ساعات، وضعت يدي على رأسي من ألم رأسي الشديد وأتذكر كل كلمة قالها لي هلال، كانت صادقة رغم غرابتها، لكن لمَ الآن، هلال بدأ يعي ما أتى لأجله؟!

خرجت خارج الغرفة وأنا أهرول في البيت بحثًا عن هلال فقابلت سلام، ابتلعت غصتي ونظرت إليه بخوف وأنا أسال عن هلال.

نظر سلام إلى هيئتي ورفع رأسي بإصبعيه وهو ينظر إلى رقبتي ويتأمل هيئتي التي مؤكد أنها فوضوية كثيرًا ثم ضحك بسخرية:

- في حد يقوم ويسيب التبر برضو؟

- فين هلال؟

مط شفتيه باستنكار وسار من أمامي، نظرت إليه بغضب ثم توجهت مرة أخرى للبحث عن هلال، دخلت غرفته وسمعت صوت المياه من حمام الغرفة، طرقت الباب وأنا أناديه، سمعت

صوته وهو يقول بصوت خفيض ومتقطع:

- امشي من فضلك يا تبر.

مسحت على شعري بتوتر وخلعت قميصه وارتديت قميصي، نظرت إلى باب الحمام على أمل أن يخرج ويقابلني لكنه لم يفعل، ضربت الأرض بقدمي بغضب وخرجت من الغرفة

***

في الحديقة جلست وجسدي تسري فيه رعشة خفيفة كلما تذكرت ساعاتي الأخيرة مع هلال، لم أتوقع ما حدث لكنني لم أكن مستاءة منه بقدر ما كنت خائفة عليه، أعلم أن "هلال" ليس من ذلك النوع هناك شيء حدث لا أفهمه، وقفت وذهبت إلى سلام بغضب كنت أعلم أنني سأجده في المكتبة.

عند دخولي رفع سلام عينه من على الكتاب ونظر إلي بابتسامة، جززت على أسناني وقلت له بغضب:

- أنت كنت عارف إن ده اللي هيحصل؟

- هو أنا بشم على ضهر إيدي؟

سحبت الكتاب من يده وألقيته بغضب وأنا أصرخ في وجهه:

- ما تعملش غبي!

- تفتكري هلال من نوع العقليات اللي هيسألك يا ترى يا تبر أنت ليه مش عذراء!

- أنا هخلي هلال يمشي النهاردة.

هممت بالخروج من الغرفة فجذبني سلام من شعري وأوقعني أرضًا، ونزل لمستواي وهو يقول بنبرة تهديد:

- لو مشتيه لازم تكوني فاهمة إنه هيموت.

نظرت إليه بخوف وأنا أبكي، ترك شعري ووقف، رفعت رأسي وأنا أصرخ بغضب:

- لو هلال حصل له حاجة أنا مش هبقى تحت رحمتك يا سلام!

- هتعملي إيه؟ هتتذللي ليه يسامحك مثلا.. أرجوك سامحني أنا عبدك الخطاء وتبكي وتسجدي ليل نهار علشان يعفو عنك.. مش هتقدري يا تبر هتموتي وهو كارهك ومش عايزك.

هززت رأسي نافية وأنا أضع يدي على فمي وأبكي بحرقة بينما خرج سلام من الغرفة.

***

- اليوم الرابع -

لم أذق طعم النوم طوال الليل كنت أفكر وأفكر، أنظر إلى السماء؛ آملا أن أراه، آملا أن يقول لي: "إنني أن أردت العودة سيستقبلني بصدر رحب ويقبلني"، لكن ربما سلام محق، ربما هو لا يريد أمثالي.

عند شروق الشمس بدلت ملابسي وقبل خروجي من الغرفة نظرت إلى نفسي في المرآة، عيناي متورمتان من البكاء، ووجهي يبدو كأني أصبحت كهلة في يوم وليلة.

خرجت من الغرفة وتوجهت لغرفة هلال وطرقت الباب أكثر من مرة وعندما لم أسمع ردًّا فتحت باب الغرفة، كان هلال ينظر من النافذة إلى السماء.

التفت إلي وكانت هيئته لا تقل سوءًا عن هيئتي، اقتربت منه قليلا وتوقفت وأسندت يدي على كرسي من شدة الدوار، نظرت في الأرض وأنا أقول بتعب:

- امشي يا هلال.. ما ينفعش تفضل هنا.

- اللي بدأته هيكمل للآخر.

قال جملته الأخيرة بصلابة رغم صوته المتعب، رفعت رأسي ونظرت إليه بعيون دامعة فأردف هلال:

- أيا كانت النتايج هيكمل يا تبر ودلوقتي.

هززت رأسي بالموافقة واقترب مني هلال ليسندني إلى الغرفة البيضاء، كانت ريحها مختلفة عن البارحة كأن ما حدث بدل حتى الجدران، استلقى هلال وأغمض عينه وجلست أمامه، فكرت فيما يجب أن أقوله فتنحنحت وقلت بتعب:

- النهار ده آخر يوم ليك في التجربة.. عارف اللي وصل برصيصا للنهاية دي إيه؟ الشيطان أو زي ما كل الناس بتقول إنه الشيطان.. لكن دي مش الحقيقة يا هلال دي مش الحقيقة.

***

البوابة الأخيرة

مصر الجمهورية

_١١_

" هلال "

فتحت عيني وأنا أنظر حولي بتعب، حتى وأنا داخل رأسي متعب، حاولت تمييز أين أنا، كانت الأجواء مألوفة إليّ إلى حد ما، المكان أشبه بقصر وديكوره عاصرته في وقت من الأوقات أعتقد أني في حقبة السبعينيات على ما أظن، سرت في المكان حتى رأيت صورة السادات معلقة، نظرت حولي بتعجب أهذا قصر الرئيس؟!

سمعت صوت أقدام قادمة فوقفت في ثبات حتى دخل الرئيس الراحل أنور السادات ومعه بعض الرجال، لم أكن أتوقع أنني سيأتي عليّ الوقت الذي أقف فيه أمامه، صوته المميز يرن في أذني لكن لا أعتقد أنه بطل الحكاية.

ذهب السادات إلى مكتبه بينما وقف الرجال الثلاثة الذين كانوا معه يتهامسون وهم يتفقون على أن يتقابلوا، ذهب الرجلان وبقي رجل واحد، بقي ينظر إليهما حتى رحلا ونظر إلى مكتب السادات ثم رحل هو الآخر، في أثناء خروجه أوقفه صوت أنثوي رقيق وهي تناديه باسم "علي"، توقف علي وابتسم للسيدة التي كانت قادمة نحوه وقال بتحية:

- جيهان هانم؟

- أخبارك يا علي باشا؟

- بخير يا هانم.

- كنت عايزاك تبلغ اعتذاري لمنى هانم على عدم اتصالي بيها أبارك لها على ابنكم، أنت عارف الرئاسة لسَّا في أولها والمسئولية تقيلة.

- مقدر جدًّا يا هانم.

- ويا ترى المولود اسمه إيه؟

- بنت واسمها جيهان.

نظرت إليه جيهان باستنكار وابتسمت، فضحك علي وأخبرها أنه كان قرار زوجته.

ضحكت جيهان وأخبرته بإرسال تحياتها لزوجته وللرضيعة فوعدها علي بذلك ورحل.

***

في منزل علي باشا مرتضى كانت الأوضاع هادئة رغم تعديه سن الأربعين إلا أنه تزوج فقط من عام ونصف، كان معروفًا بقوته وضخامة جسده منذ دخوله الجيش وأخذ يرتقي بالمناصب منصب تلو الآخر حتى وصل إلى وزير الدفاع في حكومة جمال عبد الناصر، استمرت الحكومة كما هي في عهد السادات لكن السادات كان هو البداية لشيء ما لا يعرف ما نهايته.

دخل إلى غرفة نومه فوجد زوجته منى ترضع صغيرتها وتشير إليه بالتزام الصمت حتى تنام الفتاة، ابتسم ووضع يده على فمه مشيرًا بأنه سيكون هادئًا تمامًا، بدل ثيابه ثم أخذ سجائره وخرج، وضعت منى الفتاة في سريرها وخرجت وراء علي واحتضنته من ظهره: وحشتني.

ابتسم علي وجذبها من يدها واحتضنها فسعلت منى من رائحة السجائر، اعتذر علي وهو يطفئ السيجارة ويفتح النافذة للتهوية وأخذ يدها وجلسا معًا:

- جيهان هانم بتسلم عليكِ وبتعتذر إنها ما جاتش تبارك لك.

- ست جميلة وذوق قوي.. الشغل ماشي كويس؟

هز علي رأسه بالإيجاب فسألته منى وهي تنظر إلى عينه؛ لتعلم إن كان يكذب أم لا:

- وفوزي وصالح لسَّا واخدين موقف من الرئيس؟

ابتلع علي غصته وقال بلامبالاة:

- مفيش وضع بيفضل على حاله.

- اوعوا يكونوا هيأذوا الريس أو يدخلوك في لعبة مش بتاعتك يا علي حافظ على نفسك وعلينا.

ابتسم علي وقّبل رأس منى واحتضنها وهو يحاول أن يطمئنها.

***

في المساء، قابل علي زميليه في السلطة: فوزي وزير الداخلية، وصالح وزير الإعلام اللذين كانا متمردين على تولي السادات الرئاسة رغم رضى الشعب عنه، ورغم حالة البلاد التي لا تسمح بأي شيء سوى التفكير في الشعب وأحوال مصر الداخلية والخارجية، لكن ربما هناك وجهة نظر أخرى يجهلها الجميع حتى علي، ذلك الرأي كان يتلخص في أن إنزال السادات من على كرسي السلطة سيكون هو بداية النجاة للبلاد.

تقابل الثلاثة في مطعمٍ شهير وأخذوا يتحدثون عن كيفية تنحي السادات عن منصبه وكل ما كان يفكر فيه علي هو كلام زوجته بالحفاظ عليهما.

أشعل سيجارة وهو يستمع لهما في شرود حتى لمح سيدة شعرها طويل من الأسود الفاحم تجلس وحيدة وهي تتناول العشاء، راقبها وهو يتذكر ملامحها في ذهنه حتى وقعت السكين من يدها،

انحنت لتلتقطها ورفعت رأسها فرأت "علي" وهو ينظر إليها فأخذت السكين ونظرت أمامها سريعا في توتر.

استأذن علي من زميليه وذهب إلى السيدة وهو يلقي عليها التحية، مسحت السيدة فمها بمنديل الطاولة وابتسمت:

- كنت عارفة إنك مش هتفوت الفرصة دي يا سيادة الوزير.

- أظن العشرة الطيبة تسمح بكده.

نظرتْ إليه بشك فمد علي يده بابتسامة فصافحته فلثم يدها بلطف: مبسوط إني شوفتك يا عائشة هانم.

- زي ما أنت؛ الجواز ما غيركش شوية؟

- حبي لزوجتي ملوش علاقة بغلاوتك عندي وكمان مفتكرش الجواز بيغير بسرعة كده.

- كل خطوة في حياتنا بتغير حاجة جوانا يا علي.

- كان نفسي أسألك إيه اللي اتغير فيكي بعد انفصالنا لكن أنا معايا ضيوف مش حابب أتأخر عليهم اكتر من كده.

ابتسمت عائشة وسحبت يدها من يده.

- مسيرنا نتقابل تاني بلغ سلامي لمراتك.

هز علي رأسه بالإيجاب ورجع إلى طاولته، التفت فوزي إلى عائشة: جميلة قوي الهانم دي.

ابتسم علي ابتسامة جانبية ثم التفت إلى صالح الذي قال وهو يأكل:

- احنا كنا بنقول إن بداية انسحاب السادات تكون من الشعب، الإعلام لازم يلعب دوره ضده علشان الشعب اللي مسنود عليه يختفي.

تنهد علي بملل وقال بلهجة جادة:

- اسمحوا لي أقول لكم إني شايف إن الخطوة دي ملهاش لازمة دلوقتي.

كاد فوزي يتكلم فأردف علي بحزم:

- أنا وزير الدفاع؛ غرضي الأول والأخير هو حماية الشعب مع كامل احترامي أنتم محدش فيكم مدرك الوضع العسكري اللي بنمر بيه احنا مش عارفين نلم خساير العدوان تقولوا بلد من غير ريس؟!

نظر صالح إلى فوزي فتنهد فوزي:

- إحنا أكيد هنعرف نسيطر على الوضع هي خطوة مش سهلة بس تستحق.

نظر علي على طاولة عائشة الفارغة:

- كل خطوة في حياتنا بتغير حاجة جوانا ما بالكم بالبلد!

***

الحفاظ على زوجته وابنته فرض وليس اختيارًا.

والإخلاص للوطن فرض وليس اختيارًا.

وكيف لك أن تعيش في وطن خنت فيه رب الوطن ومسئوله؟

كل هذه الأسئلة كانت تدور في ذهن علي، تقلب على الجانب الآخر محاولا النوم حتى اعتدلت منى وأنارت المصباح بجانبها.

نظر علي إليها واعتذر لها عما سببه من إزعاج، نظرت إليه منى وهو تحك عينها وسألته عن سبب أرقه، فكر علي في أن يحكي لها لكنه فضل السكوت.

- سهل عليك تكذب على فكرة لكن صعب تتصدق.

تنهد علي وارتمى بين ذراعيها وهو مثقل بالأفكار، نظرت إليه منى بحيرة ثم ضمته إليها وهي تمسح على شعره حتى غفا.

وتمر الأيام ولا تزال خطة تنحي الرئيس قائمة والأمور تزداد سوءًا يومًا بعد يوم؛ خاصة بعدما نفّذ صالح خطته وبدأ الإعلام يعمل على انقلاب الشعب.

أخذ القلق والأرق يتسلل إلى علي وفكر أكثر من مرة في الانسحاب من كل ذلك لكنه كان يجهل مصير قراره، ذهب إلى المطعم الذي التقى فيه بعائشة المرة السابقة؛ آملا في أن يراها ويتحدثا فرغم انفصالهما منذ سنوات إلا أنه كان يثق في رأيها دائمًا فهي صديقته المقربة قبل كل شيء، وهي ملاذه الأخير عند تشتت أفكاره، وتحقق أمله عندما رآها تجلس بمفردها، جلس معها وأخذ

يقص عليها كل ما يحدث معه وهي تسمعه بصبر حتى انتهى من حديثه، فابتسمت عائشة وشبكت أصابعها ببعض وعلي ينتظر إجابتها.

***

في اليوم التالي، تحديدًا في مكتب السادات، كان منشغلًا في قراءة أوراق معينة تخص العمل وعلي جالس أمامه يسترجع كلام عائشة ليلة أمس:

"أنا كل كلامي يتلخص في نقطة واحدة بس يا علي، أنت مينفعش تكون في وطنك خاين.. خصوصا وأنت عارف إن دي مش مصلحة بلدك متخليش الطمع والأفكار الخطأ تغيرك.. أنت أفضل من كده، وبلدك تستحق أكتر من كده".

تنهد علي فالتقت له الرئيس وخلع نظارته وانتبه له منتظرًا أن يبدأ بالحديث، ابتلع علي غصته وبدأ يقص كل ما حدث وسبب انقلاب الشعب عليه، ومن بعدها تغيرت كل الأحداث عندما أمر الرئيس باعتقال كل من صالح وفوزي بتهمة الخيانة وعزل كل الحكومة عن منصبها.

كان رد فعله كالريح التي تلتهم كل شيء لكنه كان يطمئن علي وهو يرى كم كان السادات مسئول عن منصبه.

مرت الأيام كما أراد علي وبدأت الأمور تتحسن خطوة بخطوة حتى عاد إلى بيته في يومٍ من الأيام ليجد باب الشقة مفتوحًا، عقد حاجبيه وأخرج مسدسه وهو يمشي بحذر وينادي على زوجته منى.

كانت الشقة فوضوية مما يدل على محاولة المقاومة بين منى وشخصٍ ما، دخل غرفتهما الخاصة فوجد منى والرضيعة تحتهما بركة من الدماء.

اقترب منهما وهو ينظر إلى جسدهما وقد شوهتهما طلقات الرصاص وبجانب السرير ورقة كتب عليها:

"تلك نهاية الخيانة ".

لم يتحمل علي الصدمة وفقد الوعي

***

أفقت وأنا أصرخ بصوتٍ عالٍ وهي تراقب رد فعلي بتجلد والدموع في عينيها.

نظرت إليها ودققت في وجهها:

- هو أنا علي؟ أنت عائشة؟

لم تحرك جسدها أو ترمش، اكتفت فقط بالنظر إلي وهي تدمع.

هززت رأسي نافيًا وأنا أكاد أصاب بالجنون وتركتها وخرجت خارج الغرفة سريعا.

***

_١٢_

" فدوى "

الموت هو الحقيقة الوحيدة التي مهما تغيرت أفكارك ستظل تلك الفكرة هي الحقيقة الوحيدة مهما تغير الزمان، أتذكر قصة قديمة عن عجوز جاءه الموت ليقبض روحه فخاف العجوز وأراد عدم مفارقة الحياة ومع إصرار الموت لأخذه ضربه العجوز بحجر في عينه وهرب منه، حسب وقتها أنه تخلص من شبح الموت للأبد، لكنه تفاجأ بالموت يعود إليه مرة أخرى ويعرض عليه صفقة، تعجب العجوز وقال للموت أن يعرض ما لديه فأخبره الموت أن يأتي بثعلب وينتف شعره ومع كل شعرة ينتفها سيعيش سنة، فكر العجوز وقال للموت: إن فعلت ذلك هل سأموت في النهاية بعد كل تلك السنوات؟ فضحك الموت وأجابه بنعم، وقتها نظر إليه العجوز وقال: لا أريد.. اقبض روحي الآن إن أردت.

لا عزة في الموت، لا جدال في النهايات، الموت يأخذ القوي والضعيف، من عاش حياته شقاء ومن عاش حياته ترف، لا يهم الموت إن كنت واجهت أكثر الوحوش ضخامة وبشاعة، لا يهمه إن كنت قضيت حياتك كلها تتعبد أو حياتك كلها في فجور، مهما حدث سيظل الموت الحقيقة والخوف والنهاية.

***

اليوم الرابع دون وجود هلال معي، أشعر بغرابة من وجودي بمفردي رغم أنني كنت طوال الوقت بمفردي حتى وهو معي، لأجل ذلك السبب تركته يذهب حيثما يشاء، كنت أعلم أنه لم يذهب في رحلة تابعة للعمل أو شيء من هذا القبيل لكنني تركته، وجوده أو غيابه لم يعد يشكل فارقًا معي أو على الأقل لم يعد هو الرجل الذي تزوجته، تلك المشاعر الرقيقة التي كنت أشعر بها معه تلاشت، كل تلك الذكريات الجميلة أصبحت قصاصات محترقة.

أخبرتني صديقتي بأنها ستذهب لتشتري بعض الأشياء ثم خرجت، الشعور بالعبء وأنك غير مرحب بك في ذلك العالم أصبح شعوري الدائم الذي لا يتوقف عن مطاردتي، سحبت التشيلو وأنا أعزف محاولة إلهاء نفسي حتى تعود صديقتي.

وفي منتصف العزف سمعت صوتًا ما، توقفت عن العزف وناديت على صديقتي ربما عادت مرة أخرى، لكنني لم أسمع ردًّا، نظرت حولي بتوتر وتركت التشيلو، وأنا أتحرك ببطء في المكان، سمعت الصوت مرة أخرى فتوقفت وأنا أبتلع غصتي، كان يراودني شعور غريب ويشبه ذلك الشعور وقت حادث السيارة الذي قتل أعز ما لدي.

أعتز بنفسي وبما حققته في حياتي.

أعتز بمواجهة الصدمات والخسائر.

أعتز برؤية حب حياتي ينهار أمامي وأبقى صامدة.

أعتز بخسارة قدرتي على المشي وأبقى صامدة.

أعتز بخسارة فتاتي وأبقى صامدة.

أعتز بخسارة الزوج والحبيب وأبقى صامدة.

أعتز بكل لحظة واجهت الحياة بقوة وصلابة.

أعتز أنني رغم كل شيء ما زلت قادرة على الابتسام، وأجعل أصابعي تتمايل بخفة على التشيلو.

أغمضت عيني وأنا أسترجع كل شيء أمامي وكأنها المرة الأخيرة، أرى نفسي وأنا أعزف وأرفع رأسي فأشاهد "هلال" لأول مرة، أرى أول لقاء لنا وأشعر بتلك الرعشة المميزة التي أصابتني عندما لمست يده أول مرة، أرى وجهه وهو يأتي إلى كل حفلة أتواجد بها ومرسومة على شفتيه تلك الابتسامة الجميلة، لمعة عينيه الخضراوين حين يشاهدني، كم كانت جميلة، وبعدها زواجنا وبعدها ميلاد إيلاف وبعدها وبعدها، ذكريات لا يمكن نسيانها، سمعت الصوت مرة أخرى وأصبح على مقربة مني.

أدرت وجهي بخوف فرأيته، هو الموت يقف وينظر إلى ذلك البشري الذي ضرب رأسي بشيء ثقيل فوقعت أرضًا من على الكرسيّ، اختفى من نظري وبقي الموت فقط يقف أمامي ويبتسم، الدموع تنزل على وجنتي والدماء أيضًا، أرى إيلاف تقف وراءه وتبتسم، ابتسم لها ربما تلك حقا النهاية يا فدوى!

هرول إليّ هلال وأمسك بي وهو ينظر إلي بخوف ويبكي، ربما تلك هلاوس النهاية، وضعت يدي على وجنته وابتسمت ابتسامة واسعة، ليست هلاوس، هلال هنا وأنا بين أحضانه، رفعت رأسي إليه وأنا أبكي والابتسامة على شفتي وأجبرت أحبالي الصوتية على التحدث رغم صعوبة الأمر.

- شكرًا.. على وجودك.. لآخر لحظة.

أغمضت عيني وشعرت بالقلب وهو يتوقف.

لمَ ما زلت أفكر؟

لمَ ما زلت أتحدث؟

لعل حديثي هو حديث روحي، لا تحزن يا هلال.

فلا عزة في الموت

ولا جدال في النهايات..

***

_١٣_

" هلال "

لم أتحمل أن أبقى داخل المنزل أكثر من ذلك، أخذت أشيائي وملابسي المعتادة وخرجت سريعًا خارج المنزل دون رؤية تبر، دون انتظار اليوم الأخير، كل ما أريده هو معرفة الحقيقة.

ذهبت إلى شقتي وتوجهت إلى الكتب وأنا أبحث عن كتاب كنت قرأته يومًا عن السادات، بحثت وبحثت ولم أصل لشيء، أخذت الكتب كلها وألقيتها على الأرض بحركة عصبية وأنا أبحث عن الكتاب الذي أريده حتى وجدته، فتحته وأنا أفتش عن أسماء الوزراء في فترة حكم أنور السادات حتى وجدت اسم علي مرتضى، علي مرتضى حقيقي إذن كل من رأيتهم حقيقيون.

فتحت هاتفي وبحثت عن قبره على الإنترنت وأخذت العنوان وخرجت سريعًا إلى العنوان المنشود.

دخلت المقابر ووقفت أمام قبره "علي مرتضى أمين الجمال" من ١٩٢٩ ل ١٩٧٧، وقفت أمام قبره وأنا أحاول ربط الأمور ببعضها قدر الإمكان، ناديت على حارس المقابر وسألت عن سبب موته فحكى لي أنه مات منتحرًا في مستشفى الأمراض العقلية التي دخلها لبضع سنوات بعدما قُتلت زوجته وابنته.

شردت في القصة ونظرت إلى قبره مرة أخرى توفي قبل ميلادي بسنة أو بضعة أشهر، شكرت الحارس وخرجت وأنا لا أعلم إلى أين سأذهب، القصص حقيقية أنا علي، ربما أنا يوسف، ربما أنا سجاج أو اديرا، ربما أنا جميعهم!

مسحت على شعري بتعب وقررت الذهاب لفدوى، شعرت أنني أفتقدها وأريد رؤيتها بشدة، ذهبت إلى بيت صديقتها فوجدت الباب مفتوحًا، نظرت إلى الباب وتذكرت علي فابتلعت غصتي ودخلت بحذر وأنا أنادي على فدوى وكلي أمل أن ترد على ندائي، مشيت في الشقة بحثًا عنها وكل ما في بالي مشهد علي حين رأى منى وابنته، خوفي يزداد، قدماي تتحرك بصعوبة، سرت حتى وجدتها واقعة على الأرض فنزلت سريعًا وأمسكتها وأنا أنظر على الدماء على رأسها والدموع في عينيها.

لا لا.. لا يمكن أن تتركيني الآن، أنا لا أملك غيرك، فدوى، ماذا أقول؟ أو على ماذا أطلب منك السماح؟

بدأت أجهش بالبكاء وأنا أنظر إليها وأشعر أنها ستتركني، أشعر أني مكبل اليدين وآخر شيء مني يرحل دون رد فعل مني، وضعت يدها على وجنتي وهي تمسح دموعي وقلت بصوت متقطع:

- شكرا.. على وجودك.. لآخر لحظة.

أغلقت عينيها وأنا أنظر إليها بصدمة، لا أصدق أنني لا أشعر بنبضها، ضممتها إليّ وأنا أنظر حولي بخوف وأنظر إلى كرسيها المتحرك الواقع.

تركتها وأنا أكاد لا أستطيع الوقوف على قدمي وهرولت سريعًا خارج المكان، دموعي لا تتوقف عن النزول، أمشي كالمجنون في الشوارع ودماء فدوى على قميصي، حتى وصلت لبيت تبر، فتحت تبر فقبضت على رقبتها قبل أن تنطق بأي كلمة وهي ترجع إلى الخلف حتى وقعت على الأرض وما زالت رقبتها بين يدي، نظرتْ إلي بخوف وللدماء على قميصي فقلت بغضب وأنا أتمنى أن تموت بين يدي:

- أنتِ.. أنت اللي قتلتِ فدوى.

هزت رأسها نافية وهي تبكِي ثم تكلمت بصوت مبحوح لا يكاد يخرج من ضغطة يدي على رقبتها:

- مش أنا.

- أنتِ السبب في كل اللي حصل ده.

تركت رقبتها ووقفت أنظر حولي وأنا مذعور ثم رجعت بالنظر إليها وهي تسعل:

- برصيصا.. برصيصا أذنب علشان الشيطان وسوس له بكده.. أنت.. أنت شيطان؟!

مسحتْ على دموعها ووقفتْ أمامي:

- معقول تكون لسَّا مفهمتش المعادلة؟ أنا واحدة كل اللي تمتلكه قدرتها على اللعب بالعقول.

- أنتِ دجالة.

- أنا مش زي البشر وكل اللي ورتهولك الحقيقة يا هلال.. الحقيقة بس!

كنت أنظر إليها بذعر وأحاول استيعاب كلامها، اقتربت مني ووضعت يدها علي فابتعدت بخوف، نظرت إلي وتنهدت:

- تناسخ الأرواح.. ده اللي رابطني بيك.. احنا اتقابلنا في أكتر من حياة.. حياة كنت أنت فيها اديرا وأنا اوهانا.. حياة كنت أنت سجاج وأنا طروب.. حياة أنت يوسف وأنا ديبورا.. حياة أنت علي وأنا عائشة.. أنا لما شوفتك حسيت إنه أنت مصدر نجاتي، عملت تجربة وفكرت وخططت علشان أوريك القصص دي.. علشان تفضل جنبي بس واضح إني كنت غلط، وجودك جنبي أذاك وأذاني.

لم تحملني قدماي أكثر من ذلك فارتميت على أقرب كرسي وجدته وأنا أشعر أن مخي سينفجر، جلست تبر تحت قدمي وأكملت حديثها:

- أنا حبيتك يا هلال وما كنتش عايزة أذيك.

ابتسمتُ بسخرية ونظرت إليها؛ كلماتها تقولها بشكل عادي كأني لم أزنِ معها، كأن زوجتي لم تقتل بسببي، كأن تلك الحياة المعتادة، دققت النظر بأعين تبر حتى نظرت في الأرض وهي تبتلع غصتها وقالت بصوت خفيض:

- لو عايز تقتلني تقدر تعملها.

رفعت رأسها بأصابعي وتأملت ملامحها والخوف يتسلل إلى ملامحها وتكلمت أخيرا قائلًا بابتسامة:

- أنت الموت رحمة ليكي.

صفعتها بقوة فوقعت فارتطم رأسها بالأرض ورفعت أعينها لي وهي تبكي، وقفت ونظرت إليها وجسدها الهزيل مستلقٍ أمامي، ضربتها بقوة بقدمي ثم ذهبت.

***

لا أعرف كم بقيت داخل بيتي، لا أعرف الوقت، لا أعرف الليل من النهار، كان بيتي مقبرة فوق الأرض بالنسبة لي مغلق النوافذ ليل نهار، ينخرط رائحة التدخين برائحة الغبار، لا يهم لم يعد يهمني شيئًا، هذه المرة لا يمكن الرجوع، لا يمكن الوقوف على قدمي مرة أخرى، كنت أدخن وأدخن ومع كل سيجارة أدخنها وأنهيها أطفئها في جسدي، مازوخي؟!

لا أظن لكن أكاد أجزم أني لم أكن أشعر بألم جسدي لوهلة، كل ما كنت أشعر به هو روحي المعذبة، السجائر التي تطفأ في جسدي لا تؤلمني، جرح ذراعي وكل جسدي بالسكين لا يؤلم، لا شيء يؤلم بقدر نفسي، نفسي التي أشعر أنها تتغذى على أذى نفسي، صوتها يعلو داخل أذني وهي تذكرني بكل ذنوبي من يوم ولادتي.. الصوت داخل رأسي يكاد يقتلني، أصرخ بصوت عال وأصدم رأسي في الحائط، لا يتوقف، لمَ لا يتوقف؟!

أنظر إلى النافذة وأفتحها فأحجب عيني من الضوء رغم أن الشمس قاربت الغروب.

لعلها هي النهاية

فلتسامحني يا ألله

أنا إنسان ضعيف

غير جدير بعبادتك وطاعتك

نظرت إلى الأسفل وأغمضت عيني

الطيران مسلٍّ لكن النهاية هل ستؤلم؟

***

" الخاتمة "

" تبر"

بعدما تركني هلال ورحل لم أستطع منع نفسي من البكاء، بكيت بحرقة على كل شيء، على سلام الذي مات لأجلي وهو يحبني ولم أحبه يوما، أتذكر ذلك اليوم الذي اعترف فيه بحبه لي ورفضته، نظرته إلي وهو يشعرني أنني خذلته وخذلت حبه لي لم تخرج من بالي إلى هذا اليوم، اختفى سلام بضعة أيام بعدها سمعت خبر وفاته بسكتة قلبية، كانت تلك نهاية حياتي شعرت أنني السبب في موته وحاولت الانتحار حتى.. حتى ظهر لي سلام مرة أخرى، أعلم إنه لم يكن بشريًّا لكنني وافقت وقررت منحه روحي، وقتها أحبني بشدة منحني القدرة على رؤية حيواتي السابقة والقدرة على التلاعب بالعقول، إن حكيت تلك الحكاية لأحد سيحسبني جننت وأنا بالفعل جننت لأمنح روحي لجان.

مع الوقت بدأت أشعر بالذعر من وجود سلام أردت التخلص منه ولم أستطع كان يتملكني، حتى قابلت "هلال" وشعرت أنه هو نجدتي، لكنني أنهيت حياته بيدي، ورغم كل ما حدث لم يفهم، لم يفهم أننا مصدر الشر داخل أنفسنا، لم يفهم أن نفسنا الأمارة بالسوء، أي شيطان يجعلني أوهب روحي لجن، الشيطان لا يوسوس

إلا لمن يستحقون ذلك، يستحقون أن يكون الشر بهم، يستحقون أن يكونوا ضحايا أفعالهم مثل هلال.

اعتدلت وأنا امسح دموعي، ورفعت رأسي ناظرة إلى سلام وهو ينزل من غرفته ويأتي إلي، نظر إليّ بابتسامة بسيطة ونزل إلى مستواي وهو يهمس في أذني:

- فدوى ماتت.

خبره لم يكن مفاجئا، لكن كان مفاجئا لأنه منه، نظرت إليه بصدمة ولم أعلق، ثم نظرت في الأرض وأنا مستسلمة له، كل خلية بجسدي مستسلمة له.

***

بعد بضعة أيام قررت الذهاب إلى بيت هلال، أريد الاطمئنان عليه حتى لو من بعيد، ذهبت إلى عنوان منزله ورأيته.

لم أستطع تمالك دموعي وهربت من الحشد وعدت إلى البيت مرة أخرى.

لقد مات هلال.

لقد قتلت شخصًا آخر بحبه لي.

مات هلال وأنا ما زلت على الأرض أتعذب.

مات هلال ولم يعد هناك سبيل للنجاة.

مات هلال وانتهى كل شيء.

قلت جملتي الأخيرة وأنا أتنفس لفافة التبغ بين أصابعي وسلام يجلس أمامي.

أستمع لصوت داليدا وهي تصرخ:

"Je suis malade complètement malade Je verse mon sang dans ton corps Et je suis comme un oiseau mort Quand toi tu dors Je suis malade parfaitement malade Tu m'a privée de tous mes chants Tu m'a vidée de tous mes mots Pourtant moi j'avais du talent avant ta peau"

- مش حاسك متأثرة.

نظرت إلى سلام عبر دخان لفافتي:

- عايزني أعيط ولا أصوت؟

- عايز رد فعل منطقي.

ضحكت، ضحكت بشدة حتى سعلت وأنا أنظر إلى سلام وعيني تدمع من فرط الضحك، وسلام ينظر إلي بتعجب.

تركت السيجارة وجلست بجانبه وأنا أمسح على شعره

- انهي منطق يا سلام هو في منطق في حياتي من أساسه.

ما زال سلام محافظًا على نظرته المتعجبة.

ارتميت في أحضانه ووضعت يدي على جسده البارد وأنا أبتسم

ستكون هناك نهاية مؤكد.

ستكون إما نهايتك أو نهايتي يا سلام، لكن قبل نهايتي سأظل أحاول، سأظل أنسج كل ما سبق، سيظل **نسيج التبر** لامعًا تطمع فيه كل العيون.

- تمت -